

مهدية دحماني

روايا الجبال

(سرديات)

المحتوى

ص

الموضوع

حُبُّ عَلَى أَغْصَانِ الشَّجَرِ:

- إلى ..
- لِمَ؟
- حُبُّ عَلَى أَغْصَانِ الشَّجَرِ
- الشيخ الحكيم ودعوة الزواج
- (فَالأْتَيْنُنَا) - قِيمٌ وَشِيمٌ..
- يَا هَبُونَ الشَّرَّ عَافِيَةً
- أَبُوهُ عَبْرَ الْجِبَالِ
- هَدِيَّتُهُ الْمَعْتَقَةَ
- ثَوْبٌ صَوْنٌ
- مَتِيماً بِهَا وَيَهْمَلُهَا
- تُرَى إِلَى مَاذَا كَانَ يَصْغِي؟
- فَرِحَةَ الْبَطَاطَا

- دموعٌ معتصِمة
- المنصة (الألكترونية) - دمعة بابا
- بعض أقداره (قلمٌ نحو السماوات)
- بُو لحافٌ وقلمٌ الوزير

فاطِمات :

- بدافع الحبّ فقط
- في حضرة الخالة (حليمة)
- في سرّيّة تامّة
- آخر كسرة خمير
- خالة (عيّدة) و (التايكوندو) - ١
- خالة (عيّدة) و (التايكوندو) - ٢
- خالة (عيّدة) و (التايكوندو) - ٣ الفتي (كرشان)
- ذاكرة العطور
- أمومة على حاقة الرصيف
- سيّدة من زمن الأمومة
- قلمٌ وصفحات
- الرّفيق
- سيّدة من ضياء الشفق

يَمَامَاتُ :

- يمامات الحرمين
- سيدات أكلتهنّ الذئاب
- أين أختي؟!
- مدارسُ تعبرني
- بقايا معلّمة.. (والمخوّلُ زادَ خوّلٌ..)
- امتنان ومقدّم صدّاق - عيد المعلم
- لم أفقه حديثه
- جنحة بريئة
- لا يا صديقتي الصغيرات..
- الموتُ وفاءً
- أصغر معلّمة في العالم - غبطة الضاد
- (أبها) - حين بكى الجبل
- (أبها) - سماءٌ تمطر أمنا
- حجّ (جدًا مسلمانً)
- على متون الـ(واتس أب) -1-
- على متون الـ(واتس أب) -2-
- على متون الـ(واتس أب) -3-

فُرْسَان :

- (بُوصْرَة) - وضاعت الصرّة
- فارسٌ يوقظُ القرية
- تهمةٌ باطلة
- مسواك بريال
- آمالُ الأزقة الخلفية
- (بُولحاف) ليس زوجي.. (السّي عبد القادر) ليس والدي..
- صدرَ للكاتبَة

حُبُّ عَلَى أَغْصَانِ
الشَّجَرِ

إلى..

يومٌ كان مقداره (14 قرناً)

يدخل قاعة المحاضرات..

يكتب على السبورة : (العرب أمة حُبّ و حَرَب)..

يسترسل في قراءة القصيدة..

ينتبه إلى تلك الطالبة اللامبالية هناك في أعلى المدرج ترفع

رأسها.. يقرأ على وجهها علامات الاستفهام..

يتسلل من بين المقاعد إلى أعلى المدرج يخاطبها : أعلم أنك غير

مبالية بهذه المادة لأنها ثانوية ولا تختبرين فيها وأنت تُحضرين

لإختبارات تخصصك خلال المحاضرة كما أخبرتني آخر مرة..

فما سبب انتباهك الآن فجأة؟ وما كل هذه الاستفهامات على

وجهك..؟!!

ردّت عليه :

- يا شيخ لم أفهم معنى "شماريخ" ، هل معناها صواريخ؟!!

يستفزها :

أنت تُتقنين اللغات الأجنبية التي تُدرّسين بها مادة تخصصك ، لكن
حسب علمي أن اللغة العربية هي - أساسا - في تخصصك أيضا ،
فكيف لم تفهمي هذه الكلمة !؟

تقف بكل ثقة ترد :

(يا شيخ أنت كل مرة تَطَّلِع لي بِحَكاية.. آخر مرة كنت تحتجّ على
طريقتي في إمساك القلم وأنها غلط وتتساءل كيف أعلّمُ الطفل إمساكه
بطريقة خاطئة ؟ وقد أخبرتك بالجرح الذي أصاب إبهامي وأنا في
الفصل الأول الابتدائي فتعودت إمساكه بهذه الطريقة..

- الله غالب يا شيخ ..

اليوم تسخرُ مني وتتهمني أنني لا أفقه العربية..

أنا أتقنُ العربية منذ ذلك اليوم الذي كان مقداره (أربعة عشر قرنا..).

شرح الأستاذ الكلمة لكل طلابه ، وحين صارت الطالبة اللامبالية
زوجة له راح يشجعها على إخراج ما عندها من صفحات ، وذلك
بعد أن صارت في حلّ من وعدّها لوالدتها أن لا تكتب حتى لا يغتالها
الإرهابيون الذين اغتالوا فرسان الحرف ووأدوا الأقلام في زمن
التطرف والإرهاب..

حين رحلت والدتها كان أولّ من يدفعها إلى إخراج كل ما كتبتّه في
الخفاء.. حين قرأ كل ما باح به حرفها سرّا راح يتهمها بتوظيف
كلماته..

ردت عليه :

- يا أستاذي أنا لا أكتب من عدم ، ولغتي ليست من فراغ ، لغتي هي
كل ما أكنزه في صدري من حفطي الكثير من كتاب الله ، وهي كل

ما شكّلتَ أنتَ وأساتذتي لديّ ولدىّ أجيال وأجيال.. لغتي هي كل هذا
الرصيد الثري فأنا أكتب بلغتك ولغاتهم.

لغتك يا مُحَاكِمِي هي جذر اللغة العربية القديمة ، لغة (حَمِير والأزْد)
، وقد أرهبتنا نحن طلابك بكلماتك المُتجدّرة في عمق العربية القديمة
(شماريخ.. أم دَفْر.. يَجْهَم.. وَجَهْل وَعَرَبِد و...و...و...) كلمات تَسْتَلّها
من صحف الشنفرى، ينهال علينا بها لسانك الأزدي ودَقَا يَصْب في
أذهاننا ، يوصلها بكلمات عربية تأبى أن تندثر ، كلمات
تتنفس.. تتحرك تمشي.. كلمات هي من جذر العربية الأولى.. ترتقي
نحو أعلى أغصان أشجار الزيتون والصنوبر والسرو والأرز
المحيطة بمدرجات معهد (بوزريعة العالي التكنولوجي لتكوين أساتذة
التعليم الأساسي - الجزائر)..

ترتقي إلى كل الشجر على ذلك الجبل لتزيدَ من نضاعة بياض الثلوج
التي تكسوه..

تعاقر فسائل الثلج المنهمرة من السماء في شتاء الجزائر لتعلن
كلماتك شارة مع مهب زمهرير العواصف..

كلمات تُرَدِّدها أشجار جبل (بُو زريعة) شارة تلقح بها أذهاننا ، كما
تلقح بالبذور كل أشجار الجبل .

لغة أساتذتي أعلّتها نخبة معظمهم من أبناء وطلاب (جمعية العلماء
المسلمين)..

لغة العلم والقرآن هي أيضا لغتي.. لغة (شيخ) الجامع في زاوية
(سيدي مُحَمَّدْ اشْرِيْف الصّوْفِيّة) بحيّ (القَصْبَة) العتيق هي لغة أول
آية وأول سورة حفظتها هناك لقنها لي (شيخ الجامع) وأنا لا أتعدى
سن الثالثة..

هي لغتك ولغتهم :

- الشيخ أحمد

- الشيخ زيّاني

- الشيخ أعمّر في مدرسة (المُرابطين) بـ(الأبيار) أعالي العاصمة
(الجزائر) - الشيخ (زَمّاش) بمتوسطة (الحارثية) بالأبيار. - الشيخ
(بن شَيْكو) و(الشيخ سلمان) ، و(الشيخ عبد الوهاب) في ثانوية
(عمارة رشيد) بن عكنون أعالي العاصمة (الجزائر).. وهي لغة كل
أساتذتي في المراحل التي تلتها.

- لست لَصّة يا أستاذي..

لغتي هي صنيعُك وصنيعهم وصنيع ذلك اليوم الذي كان مقداره
أربعة عشر قرنا جعلها لغة تسير في خطّ مواز لغتي الأم..

لِمَ..؟

سِيرُ بَشَرٍ وَشُعُوبٍ وَقِبَائِلَ لَمْ أَقْبِدْهَا بِمَقَائِيْسَ وَأَنْمَاطٍ عِلْمِيَّةٍ وَلَا مَنَهْجُهَا ، وَلَمْ أَخْلُقْ لَهَا نِهَآيَاتٍ دَخِيْلَةً عَلَيْهَا لِتَفْرَّ بَعِيدَا عَنْ صَانِعِيهَا..

كَتَبْتُ مِنْ وَحْيٍ فَطْرِيٍّ كَمَا كَتَبَ أَوَّلُ إِنْسَانٍ..

إِنْسَانٌ كَتَبَ مِنْ وَحْيٍ غَرِيْزِيَّةٍ ، غَرِيْزَةَ الْبُوحِ وَالتَّعْبِيْرِ وَتَرْسِيْخِ تَارِيْخِهِ ، فَنَقَشَ عَلَى الصَّخْرِ وَنَحَتَ عَلَى الْحَجَارَةِ..

كَتَبْتُ بُوْحِيَّ تَرَاكُمِيَّ تَشْكَلَ لَدِيٍّ مِنْ أَرْمَنَةِ جَدِّي الْأَوَّلِ بَعْفُوِيَّةٍ الْإِنْسَانِ حِيْنَ خَطَّ بِالرَّمْزِ عَلَى الصَّخْرِ ، وَبِالصَّمْغِ عَلَى جِلْدِ الْحَيْوَانِ..

هَكَذَا دَوَّنتُ ، وَرَسَّخْتُ شَهَادَاتٍ لِلزَّمَنِ أَنْسَخُ سِيْرَةَ الْبَشَرِ مِنْ حَوْلِي.. أَعِيدُ صِيَاغَةَ التَّفَاصِيْلِ الْيَوْمِيَّةِ الَّتِي تَعْبُرُنِي.. أَكْتُبُ أَحَاسِيْسَ تَمَارِسُنِي.. أَعِيدُ الذِّكْرَى إِلَى الذَّاكِرَةِ..

أَكْتُبُ كُلَّ مَا اخْتَمَرَ فِي نَسْغِ قَلْمِي مِنْذُ أَنْ وَعَدْتُ وَالدَّيَّ أَنْ لَا أَكْتُبُ.. أَوْثُقُ الْمَا.. جُرْجًا نَخْرَ عِمَارَةَ الْكُونِ..

أكتبُ تاريخاً مرهقاً في غياهبِ السُّباتِ .. أسرُّدهُ عبْرَ بنانِ تدقِّ له
أجراساً فيعود عن دَهَاءِ النسيانِ .. أخرجُه .. أكتبه قبلياً بفطرةٍ أول
كاتبٍ في البشرية لم يعرف تقنين الأكاديميينَ ونظريَّاتهم العلمية
لمقاييسَ وضعيةٍ للكتابة ..

لم أرُ تجلُّ آيةَ مدرسةٍ أدبيةٍ في كتاباتي ..

لم أحصرُ نصِّي في بنيةٍ مُقنَّنةٍ للقصة ، ولم يتقمَّصُ نصِّي عُقدةً كما
فُرضَ على الرواية . كتبتُ بأسلوبٍ تشكَّلَ لديَّ عفويًا تلقائيًا من تراكم
تعليمٍ متنوعٍ منفتحٍ تجاهَ الآخرِ المختلفِ ..

سردتُ تاريخاً وتفصيلَ حياةٍ يوميةٍ للبشر .. حرَّرتُ كلَّ ذلك من

المقاييسِ الجاقَّةِ التي تزعمُ إعادةَ بناءِ الحادثةِ التاريخيةِ ..

أعتقُه من جفافِ المصطلحِ العلمي .. أعودُ به إلى الذاكرةِ الجماعيةِ
في سياقٍ سرديٍّ سلسٍ

أوسطِرُه ليتخلَّى عن العفنِ وبشاعةِ آلهِ الحروبِ ومكرِ التَّناسيِّ ..

أعيدُه قصةَ حربٍ وحبٍّ ..

كتبتُ وكتبتُ ودونتُ عناوينَ هي سيرُهُ بشرٍ وشعوبٍ عبَّروا من

خلالَ الزمنِ والأرضِ ما بين جباليِّ هناكِ وجباليِّ هنا .. ما بين

أرضِ الشهيدِ وأرضِ الحرمينِ .. بين الجزائرِ والسعودية ..

ملكوتٍ من صنيعِ أمَّةٍ وطيبةٍ أرض ..

ولأنَّ التاريخَ لا يستحي من أحدٍ ، وحتَّى لا ينامَ هذا التاريخَ وحيداً ..

كتبتُ و كتبتُ الأيامَ بكلِّ تفاصيلها ..

حُبُّ عَلَى أوراق الشَّجَر

مُتَمِّمَةٌ بعشوق أحواضها العطرية.. هاهي تَرشُّها قبل الشروق إلى
البعيد تتبادل مع العِطْرَةَ والسكب والريحانة رائحة السيل ونسائم
الصباح الندية..

يستقطبها من هناك تَوْهَجُ اللون الأحمر يعكسه أول شعاع يطل شرقا
على صدر الجبل حيث تستقيم بقايا شجر (البُنِّ) على المدرجات
الزراعية في انسجام أوتار قيثارة مع تغريد الطير..

أشجار البن تكاد تموت واقفة عند ظل الصِّدْر، لكن رغم احتضارها
فما زالت تُزهر قليلا في الربيع، وحين يحلّ شتاء التهائم وربيعها
تجود ببعض حبيبات البُنِّ الحمراء كبرياء ووفاء للأيدي التي
زرعتها.. شجرٌ يستذكر الزمن الذي لا يزال والوقت الذي لا يقاس
عند صمت القرية.

غير قادرة على مقاومة ذلك، شغفها بحبيبات البن الأرجوانية تسطع
تحت رذاذ المطر، تمتطي مركبتها اليدوية العتيقة، تتوغل في

الوادي نحو الصّدر تقودها الدروب وتدفعها الطرقات نحو مجرى
السيّل لتحاكي أزمنة كل الشجر..

على حواف الوادي تستوقفها الأيكة العملاقة..(عرج السدرة)
المُعمرّة إذْ غرزت جذور أقدامها عند أول قدوم للحصن الحجري
حيث وُلدت مواقيت الحب..

السماء عند وعدها مع الشروق المحجوب خلف الغيمة ، والغيمة
الحبلى تعيد لها حبات من ماء السيّل المتبخر ومعه تتناثر كل
الذكريات عند تجرُّر السدرة العملاقة ، عند منبتها وُلد زمن من
النهار والليل ، زمن الحب والعشيرة..

ترفع عينيها إلى الحصن الحجري.. كان هنا مُصوّبا رشاشه إلى
السماء بطلقات أغشت ضياء القمر المنسحب عند السحر..طلقات
ترحيب بنكهة من قشرة القمر..

تحية وتراحيب وغيمة تحيّيها الأيكة المعمرة لدى عبورها ، يطلقها
ملاً السماء في أول لقاء بها..

هي في حرج من دمعتين تنسكبان من مقلتيه تنتهي عند مبسمه
المطلق فلا يقدرُ على لفظ كلمات الترحيب..

كانت أول مرة تصغي إلى عباراته التي نحتت مزامير كل التراحيب
التي نسجت لكرم الضيافة ملكوته..زمن ممتد ومؤقت محفوف بعطر
السيّل يردد : "مرحبا ألف" المتعثرة على لسانه الأزدي تحبسها
دموع و ترفها ابتسامة رسمت تقاسيمه في كل لقاء بها إلى أن ارتقى
إلى السماء..

هي في حرج من أمرها تُقبّل يده..؟ تُقبّل رأسه..؟ تختار من ألقاب
القدر والوقار ما يرتقى إلى علو قدره وتبجيله: (سيدي.. عزيزي)

وغير ذلك من أعراف ألقاب القدر والاحترام في أرضها.. هو ما زال قائماً مُتَرِّحاً في استقامته يخونه حوضه المكسور.. يعتذر : اعذريني ساقي خانتني غبتُ عن الواجب؟ أبشري بالعوَض..

فهمتُ أنه يعتذر عن غيابه يوم زفافها..

يكمل الحديث رافعا عصاه في وجه رفيقها :

أنتِ في كَنَفِي الآن.. ما أنتِ بغريبة لو أخطأ علائكِ ما له إلا امْعَصَا..

كان يُبْذِر ويتوعد رفيقها بالوعد والوعيد..

مسح دموعه.. حدثها :

عسى أهْلَش بخير؟

أذن للفجر وعند الشروق راح يلوِّح بعصاه نحو المدرجات الزراعية :

أبَشَّرْشُ سَقِينَا البلاد أمس..جانا سيلٍ وشرْبِن امْبَلَد) ..ردت عليه :

- في أرضنا نسقي من المطر والثلوج وبالسيل في أرض تشبه أرضكم هذي..

- أجل أرضكم مثل السَّراه تُسقى من أمّطر..

من وحي الحب فهمتُ كلامه بقلبها ، ثم راح يلوِّحُ إلى السدرة المعمّرة :

عندكم في جبالكم شجر كبير مثل هذي؟

عندكم شجر مثل امبراية (الجميز) ؟ وراح يحدثها عن كل الشجر في واديه وفي (تهامة)..حدثها عن العثم (الزيتون) ، وحدثها عن السدر وعن السمّر والطلح..

حدثها عن كل الشجر في قريته ، وحدثته عن الصنوبر وعن التين والزيتون والصفصاف والأرز في أرضها..

لم يسألها عن أصلها ولا فصلها ولا عن أي شيء آخر.. حدثها عن الشجر ، وتبادلا حديثهما عند أول لقاء عن الشجر وعن السيل والمطر ، ومع حديثهما وُلدت فضاءات من الظل في صمت القرية ، ووُلد دهر من الحب بينهما عند منبت الشجر في واديه ، وعند الشروق بعد ثلاثة عقود من لقياهما عند ذات العرج شجرة (السدر) المُعمرة وشجر البُنّ الوفيّ الصامد رفعت يديها إلى السماء بالرحمات تعيدها مع تبخر بقايا السيل يرتقي بالماء المتبخر.. دعوات بالرحمة تعود نحو السماء مع نثرات البخار الواعد بالودق..

الشيخ الحكيم ودعوة الزواج..

كان يرتقي الدرج وعصاه تشدو بترنيمة متمازجة مع أنفاسه
(المُتفحِّمة) المُثقلَة بتسعة عقود من الزمن..

يتحنح.. يحيي أهل البيت مُعلنًا أبوتَه..

عصا خيزرانية عَطِرة..

وقعُ خطوات متناقلة وأنفاس متفحمة تحاكي قصيدة أبوة هي هبة
الجبل..

أبوة راسخة انتظرتها بنتٌ هي هبة من ثنايا جبل (قيس) وأبٌ أزلِيّ
ترقب بنتا هي عطية (الأطلس الكبير) قدمت إليه وقد فقدَ معظم بناته
بالسقم..

ما بين الدور الثاني والدور الثالث كان عمر أبوتته ممتدًا ، وكانت طفولتها فسيحة تلاقىها كلما صاح عليها :

(ما قد تزلّمتِ ؟ ألّهينا على العربِ..!!)

فارسٌ عتيد يُعلن مواسم الأفراح في بهو البيت..

يتأبط عصاه الخيزرانية مكابرا تمايل خطواته وحوضه المكسور..
يكسو كتفيه وشاحٌ من أطيايف تهامة.. وشاح يكتنز أهازيج الأرض
وسيرة صفوف الرجال وأصداء (الدمّة) و(الهود) و(والعرضة).
يبحث عنها..

هي سيدة عابرة هنا وهناك في حجرات بيتها.. يتجه إلى الأماكن
الأكثر رسوخا في يومياتها : المطبخ أو المكتب حيث تجلس على
الأرض في فوضى تخطّ خواطرها على الصفحات المبعثرة.. على
فضاءات كتاباتها المشوشة..

يُشرق :

- يالله لا عادنا بالقال.. قومي قدنا نسري لامصالة..

ترفع عينيها.. تستغرق في قسماته..

هي ذات القسمات التي احتوتها حين قدمت.. دمعة وثرغ لا تنضب
ابتسامته..

ما زالت تتأمل ملامح وجه الشيخ الحكيم وهو يستعجلها لتنضم إلى
موكب السامرين من العائلة :

- الليلة يا أبا أنا وجعة ومصدعة وعندي عمل ما أقدر اسري معكم
لامصالة..

هكذا تخبره بصوت محتبس في حنجرتها.. صوت حبسته دموع
بعمر غياب الأبوة عنها..

تخبره أنها مرهقة ومتعبة بالصداع وملتزمة بعمل..
يأمرها بالفرح :

- قومي تزلمي مع أمحريم شرهه العرب اهّبوا لنا كرتين..
صوت أمر ينساب منه الحنان نسيلا..

يأمرها بأن تتزين مع نسوة العائلة ، وتلبس أجمل الحلي.. يأمرها أن
تفرح..يأمرها أن تعتقل أزمنة الأفراح حين تأتي إليها..

شيخ حكيم يجعل من دعوة الزواج التي وصلته أمرا ، وتلبية الدعوة
واجبا والتزاما قبليا يوازي إيمانه..
تمتثل لأمره..

تُهمل كل ما وراءها.. تُلبي أوامر الشيخ الحكيم :
- تَمْ يَا بَا.. تَمْ يَا بَا أَبْشِر..

تُسرع إلى دولابها.. تخرج أحلى فستان وأطيب العطور.. تقف أمام
التسريحة..

صورة الطفلة الصغيرة تشاكسها من خلف المرأة.. هي تلك
الطفلة.. تلك الصبية.. تلك البنت التي قِدمت من قمة (الأوراس).. من
قمة جبل يلقه أريج من عقب البارود..

صبية أرهقها غياب الأبوة مبكرا لتلقاها أبوة احتبّت على قمم (جبال
الحزّ) بسجايا الشيمة والواجب.

وبين قمة جبلين : ملكوت أبوة وبنوة تتجذر إلى الأبد..

عصا الشيخ الحكيم تدق بقوة في بهو البيت:

- يا لله يا حريم ألهينا على العرب..

هكذا يستعجل الشيخ الحكيم سيدات العائلة لتلبية زمن الفرح :

- يا عوال شرهة نلهي على العرب وقد اهّبوا لنا كرتن..

كانت هذه الكلمات مُسلمات في حياة الشيخ الحكيم..

دعوة للفرح يجب تليبيتها..

لم يكن لفظ (العرب) عند الشيخ الحكيم ذا دلالة عنصرية أو عرقية !!

إنه يقصد بها (البشر).. فقط البشر الذين عليهم أن يقتنصوا ويعتقلوا

أزمنة الفرح فعمر الفرح وجيز..

رحل الشيخ الحكيم...

وابئلينا بجائحة (كورونا) ، وعُلقت الأفراح ، وحين انفرج الأمر شيئاً

ما لم تعد السيدة تغيب عن أيّ فرح ، بل تليبي كل الدعوات ، وقد

أرهق رفيقها الصعودُ والنزولُ من خلال ضباب (السروات) إلى

التهائم وأرهقته ميزات تذاكر الطائرة عبر المملكة لتليبي (الحرمة)

كل دعوات الأفراح..

رفيقُ أرهقته ويلات الانتظار تكبله عند بوابات قصور الأفراح ،

وهي سيدة أمنت بنواميس وشيم الشيخ الحكيم..

(فَالأَنْتَائِنَا) - قِيم وَشِيم..

تلتقط (غلة) الجنى (نبق السدر) الذي تنثره السدرة المعمرة
المتطاولة مع هرمية الحصن الحجري.. تبعثره هنا وهناك على
أحواض الأطياب في باحة الحوش.. تلتقطه.. تضعه في سلة
الخص.. تدخل غرفة والدتها.. تتماهى إليها ذاكرة كل العطور التي
ترسم معالم محطات طفولتها..
تغوص في الغرفة الحجرية الصغيرة..

لم يتغير شيء بداخلها..العالم الجميل كله لا يزال راسخا فيها يكثر
روائح ومقتنيات كانت تبدو للطفلة الصغيرة من عالم العجائب..

يلوذ إليها شعاع الفانوس في تَرَّح نورٍ ضئيل حلزوني تستشف من
ظلاله ذاكرة أخرى في المرأة المتهاك لجينها والتي انعكس فيها
وجه الطفلة الصغيرة لأول مرة حين جاءت بها هدية لوالدتها (مِسِرْ
روز) زوجة المهندس البريطاني (جون) الذي كان يشرف على
تشبيد أولى البنى التحتية للطرق في محافظة (رجال ألمع) ، وحل
مع زوجته في ضيافة الشيخ (مداوي) كبير القرية والقبيلة ووالدها..
تستقيم (غلة) أمام المرأة العتيدة ذاتها..

تكاد بصعوبة ترى تفاصيل وجهها من قَدَم بلورها الذي بهت.. تُخرج
وزرتها ومنديلها وملحفها من الصندوق الخشبي..لقد رتبت كل
حاجاتها حين قدمت بالأمس من بيت زوجها غاضبة عازمة مقررة
أن لا تعود إلى عصمته أبدا..

أمام المرأة تستقيم (غلة) ، سيدة في قمة صباها مستاءة من جلالة
الزوج ، فهي بنت الشيخ المدللة..تتسّر بلباسها : منديل يغطي
شعرها..نصيف علويّ ، ونصيف سفليّ يستر جسدها كاملا..

تستغرق شوطا من أزمنة طفولة غضة تستدركها عند انعكاس
الصورة من جوف البلور الممسوح..

سيدة تحرق في طفلة في تجوفات البلور..

زمن يهوي إليها..

إنها الطفلة التي كانت تتسّر لأول مرة.

ذاكرة أول ذكرى تعود إليها حين أسرعت للصندوق وسترت عوراتها..

طفلة تسرع من حوش البيت حين تنظفها والدثها عارية ، فتدرك بفطرتها أنها عارية تهزول نحو الحجرة لتستر جسدها قبل أن يعود والدها وإخوتها من الخارج..

(غلة) الطفلة سترت عوراتها من وحي الفطرة..لم تكن في سن الموعظة الدينية..لم تكن تعي دلالات وشروط الحجاب الشرعي.. طفلة في سن الرابعة أدركت بماهيتها أنها تمتلك عورات يجب أن تُستر..

تسترت بنت الرابعة مثلما ستر الإنسان الأول عورته بالشجر وجلد الحيوان..

هذا صوت (الشيخ مداوي) والدها يناديها من مجلسه إلى جانبه.. زوجها (معدّي) نادم مُستسمح عن عصبية وبعض سوءه يترجى صفحا محاولا إرضاءها.

إخوانها الثلاثة: (مُعَب..مُشَبَّب..و مشعل) شداد غلاظ شباب في أوج فتوتهم له بالمرصاد يتلفظون بالوعد والوعيد..

الشيخ (معدّي) صامت صامد يمشط لحيته المحنأة ، ثم يشير لأبنائه بعصاه ، لكن إخوان (غلة) مصممون على تطلقها من (معدّي)..

يحاول الوالد الشيخ إقناعهم بالصلح ، ويدرك نظرات الود التي تتبادلها مع زوجها الذي يبادلها نظرات الاعتذار والود نفسه ، لكنها لا ترغب في كسر كلمة إخوانها..

صمتَ الشيخَ وصمتَ أمامَ تعنّتِ أبنائه في أن لا

تعود (غَلّة) إلى زوجها..

وقف ووقف معه الجميع..رفع عصاه وسحب بطرفها وزرّة ابنته.

انكشف نصفها السفلي..

لا شعورياً قفزت وراء زوجها لتستترَ من إخوانها خلفه..

حدّقَ الشيخَ (مداوي) مستغرقاً في وجوه أبنائه رافعاً عصاه إلى

السماء :

(يا سيّحان!) من ستر أختكم؟!!

لمنّ لجأت طلباً للستر؟!!

استوعبَ (متعب ومشعل ومشبّب) المغزى من حكمة والدهم ،
وأدركتْ (غَلّة) أنها حين انكشفتْ عورتها لم تلجأ لوالدها أو إخوانها
لسترها ، بل بعفوية الزوجة الفطرية لجأت إلى زوجها سترا وغطاء
وودا ورحمة..

هذا هو (فلنتأيننا) ، ليس يوماً في السنة للحب المشبوه...

كل أيامنا هي أعياد للحب والمودة والرحمة..كل أيامنا أعياد وقيم
وشيم..

(المرجع : من روايا الجبل روايا عمي حسن).

يا هَبُون الشَّرَّ عَافِيَةً..

خط (رجال ألمع) وخطوطه الترابية المتفرعة نحو عمق الأودية..

عتبات الجبال تحت مُدْرَجَات (الشَّطَّان) الزراعية..

ألفة وتآلف يستوقفانني في كل مرة وأنا خلف خُطى الأثر أستشِف
روايا وحكايا في بقايا حصن وظفير ومفيض سيل..

بالأمس في طريقي إلى بيتي (التَّهامي) استوقفني حصن مُتلاش إلى
منحى سيرورة الزمن..

بيدي الجوال أطلب موعدا للجرعة الثالثة التنشيطية لـ(كورونا)..

كأنه (وَبْر) - أرنب برّيّ - انسلّ من بين العشب كالبرق هناك خلف
الحجارة..

تاجُ ضبابي تهاوى على هرمية الحصن الحجري.. أرفع رأسي نحو
مصدر انسياب الوبر..

ألمح طيف رجل قويّ البنية مفتول العضلات.. نزلت من المركبة..
تقدمت باتجاه الحركة باتجاه المدخل..

إنه الشيخ/ عيسى بن إبراهيم آل مانع ومعه الباني..

لقد أتم بناء حصنه بعدما رُزق بحلالٍ وفيرٍ جمعه إثر هجرته إلى
الساحل الإفريقي..

جمع ثروة لا بأس بها من عمله في الحبشة والسودان ، وتعلم أسس
التطبيب الشعبي ثم عاد إلى الديار..

تقدمت إلى جواره ، حيّيته..

إنه ليس على ما يرام.. ترسم على قسماته ملامح الحزن والأسى
والهول..

لا أحد في الجوار..

لا أحد من القرويين على متون الشيطان كالمعتاد..

إنه مسرح الفناء يعزف لحنا مقبّتا..

جبل (امعودة) المطل على ميل (قيس) جبل أثقله حدادٌ يقتبس من حزن
الأنبياء سكينته..

يتوغل الشيخ في قري (مَيْل قيس) بيده كيسٌ من الخيش بداخله
أعشابٌ طبيّةٌ وبعض القناني من الزيوت.. يتجه نحو رائحة الجثث
المنبعثة من خلف أشجار السدر وتمايل عذوق الذرة..

جثثٌ تبيّست ، وجثثٌ تعفّنت ، وأخرى تعالت أرواحها نحو سرمدية
الأفق للتو..

النّائحات كلهنّ رحلن ، والحانوتيّ إلى مثواه الأخير، ونعيّ الموت
هناك وحيدا أضاع صوته..

هناك عند زاوية السماء التي تلتقي بالجبل أقبل الشابان (حسن)
و(علي) بيد كل واحد منهما سيئته (فأسه)..

لقد أتمّ دفن جثث بعض الأطفال والنسوة وهما بحفر بقية من القبور
لدفن من بقي من الهالكين..

إنه نهم الوباء..

لم تلق الجثث من يأخذ بيدها إلى معبر البرزخ..

الشيخ (عيسى) يحاول تطيب من لا يزال يهذي تحت وطأة الحمى ،
والشابان يحاولان بأيدٍ محمومة دفن الجثث العارية للسماء ،

والسموات تجرّ أوزار الوباء..

تستقبل الأرواح المرتقية إلى الله..

خلف (عرج السدر) يتسلل صوت يُنبئ عن بقية من الحياة.

يتقدم الشيخ (عيسى) عند منبت السدر..

رضيعٌ تتشبث شفاته بثدي أمه..

لقد رحلت الراعية منذ الفجر وتتلج ثديها.. يغطي صدرها بعمامته
في قداسة..

يستر ثديين وحرمان مريضه رحلت..

بيست حلمة ثديها في فم رضيعها..

يحاول الشيخ سحب يدي الرضيع المتشبثة بالثدي المتلج..

يفك برفق شفثيه اللتين تعضان حلمة أمه من الجوع..

يحملة.. يضمه إلى صدره..

على الشيطان تحت الشجر أطفال من كل الأعمار محمومون جائعون
على دربهم المحتوم نحو اليئم..

يتعاون مع الشابين ليجمعوا أكثر من خمسة عشر يتيما إلى حصنه..
يطببهم بطرق شعبية بسيطة..

يطلب من زوجته إرضاع اليتامى الذين لا يزالون في مرحلة
الحوالين.. يزرع صلة رحم بينهم وبين أبنائه..

أطفال يتامى من أعمار متباينة في حصن الشيخ (عيسى بن إبراهيم
آل مانع)..

يكفلهم ويرعاهم مع زوجته.. يربون مع أبنائه.. يخوض بهم مدرسة
الحياة.. يزرعون.. يرعون الغنم.. ينهلون من دروب الحياة.. يلقنهم
علوم الرجال سواسية مع أبنائه.. ينشأ في حصنه ثلة من خيرة الرجال
والنسوة، نحو بناء أسر وتجارة وحياة كلها نجاح.

طَنٌ...طَنٌ..طَنٌ.. رسالة..(يتمّ تسجيل طلبك وتحديد موعد للجرعة
التنشيطية عند مرور ستة أشهر من موعد الجرعة الثانية).
عدتُ إلى المركبة وذاكرة (وَمِي فاطمة) وخالة (سعدية) وخالة
(جمعانة) والعم (حسن) تلازمني..
ذاكرة روت لي شراسة الأوبئة في زمن لم يعرف تطبيق (توكلنا)..

أبوّة عبّرَ الجبال..

يلفُ السديمُ بيته الصغير..
يدعُ له ركام الضباب بابا مفتوحا إلى السماء لتخرج منه تراتيله
إليها..

قبل أذانه للفجر أكاد ألمح طيفه وقد استيقظ قبل أفول السحر ينير
أضواء المسجد ، ومن الفوهة التي يفتحها النسيم في جوف ذاك
الضباب عند حوش بيته..

تمور ظلال جسد زوجته المنحني.. تلهبُ النار لتحضّر قرص الخمير
ودلة القهوة..

من ذات الفوهة المرتسمة عند مرمى هبوط الغيم وتصاعد دخان
التنور يسترسل صوته نورانيا من المئذنة التي تعلو محراب مسجد
القرية..

فوهة صغيرة لكنها فسيحة بعرض السماوات تتسع له ليعبر صوت
أذانه "الله أكبر " إلى كل البيوت..

أجلس على سطح بيتي أمارس فطرة الاستيقاظ مع زوجين مارستهما
تسعة عقود من الزمن.. أستشعر قلب الشيخ المتيم بحب الله..

قلب يعبر إلى الله في كل خطوة يخطوها ، وفي كل تسبيحة
وتكبير..

إيمانه دون غلُوٍ يُرسيه سارية تعلو مرفرفة نحو السماء يبذره مع كل
بذرة ما زال يحيي بها شُطّانه ويمنح بها للأرض التهامية كينوناتها..

ما زال الزرع في القرية يعتمد على مواقيته ، فالبقية من المستيقظين
في القرية لم يزالوا يمتطون مواقيته في الزرع والبذر والحرث
والصّرم حين يستغرق في عبادة العمل..

الكبار في القرية لا يعتدّون بمواقيت صلواتهم وإفطارهم وإمساكهم
إلا بأذانه :

- قد أدن امطوّع ؟

(مطوّعنا) هو مواقيت ديمومتنا في القرية ، هو كل معالمها..

مطوّعنا رجل أزلّي.. وجود مواز لعمر وتد جبل (قيس) ، ممتدّ إلى
تجذر عُروج السّدر في وادي (خُرّار) ، شامخ مع رؤوس الجبال في
(تِهامة) نحو الأفق.

من سطح بيتي التّهاميّ عند السحر يوحى إليّ طيفه بصوت ذلك
الشاب المفتول العضلات متحديا القرويين المجتمعين عند شجرة
(امبراية) بعد صلاة الجمعة..

التعليم ليس محصورا على الصبيان فقط.. سأعلمُ بناتي..

هكذا صرّح الأب المتمرّد على عرف يحظر على البنات التعليم..

بلغت (زلفة) و(علوة) أكبر بناته سن التعليم ، فقرر الأب تعليمهما
يعلوه عنوان آية كريمة تأمر بالقراءة : (اقرأ باسم ربك..).

جهّز للصغيرتين (مِخلّة)..دفتر..أقلاما ملوّنة ورصاصا..لكل
واحدة منهما كسوة بسيطة..نعالا متواضعة..جمع بعض الأدوات التي
يطبخ فيها وحزيماتٍ من الحطب ، وانطلق مع الصغيرتين.

والدّ وصغيرتان في ارتقاءٍ نحو العلم مع كل خطوة تتسلق صعودَ
جبال (امحوار- امحورة- املواء - عقبة رز- وادي لقع الموصول إلى
مركز الشعبين).

حلمُ الأب يولد ممتثلا لمزامير الفطرة ولتعاليم الله..حلم هو عبادة
وفرض يرتقي مع صعود الجبال إلى أولى مدرسة للبنات في (رجال
المع)..

يقيم الأب مع صغيرتيه في الغرفة التي استأجرها هناك..

يوميّاته معها تمضي بخطى واثقة نحو المبتغى من التعليم..

كل فجر بعد الصلاة يعدّ فطورهما.. يرافقهما إلى المدرسة.. يعود إلى
الحجرة الصغيرة لإعداد الطعام.. يقوم بكل أعمال البيت اليومية :
يطبخ.. ينظف.. يغسل الملابس.. يسهر على مذاكرتهما..

عصر الخميس يعود بهما إلى والدتهما وإخوانهما في القرية لإجازة
الأسبوع يوم الجمعة عبر ذات المسالك الوعرة.. عصر الجمعة يتجه
بهما مجدداً إلى (الشّعبين) للدراسة.

مضت سنوات التعليم الابتدائي.. نجح البنّتان.. صارتا تجيدان القراءة
والكتابة والحساب.. أخذتا من العلم والتعلم ما جعلهما فتاتين واعيتين
متفهمتين في أمور الدين والدنيا.

حقق الأب مبتغاه ، وأتم واجبه على أكمل وجه، وأدّى فرضا من
فرائض الله بأنّ علم بنتيه وأحسن تربيتهما وأعدّ كلا منهما سيدة
صالحة واعية زوجة وأمّا تبنى أسرة ومجتمعاً على أسس صحيحة..

تزوجتا وأنجبتا نشأً صالحاً..

نعم البنات ونعم الوالد..

(مطوّعنا) عنوان للدين الدنيا.. الدين السلوك.. الدين العمل..

(مطوّعنا) عنوان الأصالة والتّحدّي في قرينتنا..

(مطوّعنا) الشيخ الحكيم الإنسان المطلق الذي يصلح لكل زمان

ومكان..

هَدِيَّتُهُ الْمُعْتَقَةُ..

تتساءل :

- هل يُهديني هَدِيَّتَهُ الْمُعْتَقَةُ بعد هذا اليوم كما اعتاد حين أرحل..!؟!

تتساءل وتتساءل في يوم يمقت أشعة شمس أغسطس..

أشعة يُبَدِّدُهَا سَخَمٌ من تصاعد الرماد القذر عند عتبات النافذة
اللجينية..

تزُج بكل جوارحها عبر تلك النافذة..

عيناها حامضتان.. الليلي الثلاث الأخيرة بليدة عرجاء انقطعت فيها عنها سبل العالم الافتراضي الذي كان يزف لها أخبار الأحبة..

كان المستطيل البلوري مغشى بدخان حلزوني دخيل لم تألفه البشرية.. خلف البلور الفضي الهالكون كثيرون ، وعبر جثامينهم أطياف شبه هالكة تجر أثر الدمار..

كان هو من بين تلك الأطياف التي تتشبث بروحها ، فراحت تتساءل من جديد مرات ومرات :

- هل سيهديني هديته المعنقة عند رحيلي القادم!؟

كان يُحضّر هديته طيلة السنة عند مواسم جني الزيتون.. حين يعصره يحفظ لها نصيبها من إرث الأسلاف من الشجر المبارك المتجذر عبر القرون في جبال (الأخضرية).. يعبئ هديته في قنينات.. زيت مُعقّق للتداوي، وزيت للطهي ، وزيت للشرب..

وحين يحين جني عسل الصنوبر يقطف لها بيتا صنعته أسراب النحل البرية التي تبنيه عند نبع عين (ابن هارون) ، فيتمازج أريج عسل الصنوبر بنسمات عين (ابن هارون) المعدنية ، وتدقق مائها الغازي، فيتآلف ذلك المزيج من حلاوة العسل وحموضة الماء المعدني الغازي..

في يوم رحيلها يجمع كل ذلك ، وفي سلة من الخوص يرصّ التين المجفف ، وفي قفة يضع دلوًا من اللبن والزبدة والسمن الطازج وأقراص خبزة (المطلوع) التي خبزتها زوجته على حطب الطلح عند الفجر..

يرتب كل ذلك بعناية في سيارته..ينطلق فجرا من (الأخضرية) نحو العاصمة الجزائر - هضبة الأبيار-.. حين يعبر الخط السيّار نحو العاصمة تسير خلفه كل أشجار الزيتون في الأخضرية.. تتقدم مركبته ظلّالها..تسبّقه نحو الطفلة التي كان يروضها على ركوب (الزايّلة) الفرس في باحة البيت الطيني لجديهما..

هي ذات الطفلة التي كبرت ورحلت بعيدا إلى البيت الزوجي..

طفلة كان يروضها على ركوب دراجته النارية..كان ضابطا مرموقا في الشرطة..

كانت كل طرقات الجزائر تعرفه.. وكانت كل أشجار التين والزيتون في جبال منطقة (القبائل الكبرى) تعرفه أيضا منذ قرون..تنتظره عند الجُبّ الذي يتوسط باحة البيت الطيني لجديهما..يُقلّم أغصانها.. يلحقها..يعتني بثمارها..كل أشجار التين والزيتون تنتظره عند منبت الجبل..

تنتظر ابن العم الكبير السبعيني..

حين كلّمها ابن عمها : (أزولُ فلاك) مساء الخير..اطمئنّي نجونا من النيران..أصابتنا حروق متفاوتة..الحلال كله راح والحمد لله ، لله ما أعطى ، ولله ما أخذ ، لكن إن شاء الله بأيدي أبناء عمومك المتفحمة سنغرس فسائل شجر التين والزيتون في الجبال المحترقة ، ومن كل هذا اللهب تيقني أنني سأهديك كالعادة هديتي المعتقة..هدية معتقة : التين وزيت الزيتون من ابن عمك العجوز تزقّينها إلى الأحبة..إلى قبلة المسلمين..

لم يبق سؤالها دون جواب..

أطفأت الشاشة على أمل لقاء غصن زيتون أخضر بيدٍ أطفأت نيران
كل الحرائق المفتعلة بأدواء سياسات الأرض المحروقة.. يد ابن عمها
العجوز المتفحمة تحمل غصن زيتون أخضر يرحب بها عند عتبات
مطار (هوارى بومدين)..

(ثوبٌ صَوْنٌ..)

عند زاوية السماء يتكاثف الضباب وركام السحب يرسمان رتقا وفتقا
في الأفق حين تخترقهما الطائرات العمودية التي تحرس آفاق (أبها)
من كيد أذى أحقاد زمن (ذي قار)..

ركام.. سحب وسديم وطائرات عمودية.. تترنح في صفحة السماء
كتل من بخار وأنوار تبدو كأجرام هَوَت من فضاءاتها في مسرح
مُوح بأية البدء..

الشيخ الحكيم في زاوية السطح المجاور قد انزوى كعادته بعد عصر هذا اليوم الرمضاني حتى لا يكتشف أبنائه صيامه مكابرا ويلات مرض السكرى..

السيدات المعتقات اللائي لا يزلن مؤمنات بخبز التنور قد ألهن الموافي لطهي أقراص البر..

الشيخ الحكيم والسيدات المعتقات على أسطحن يقطنن وعد المطر من الغيمة الحبلى ، ويستبشرون بالعلامات الكونية في سماء (السروات) تحمل لهم تباشير ليلة القدر.. إنها أولى العشر الأواخر من رمضان..

في السطح المجاور بعد العصر يشع طهر مهيب من وجه الشيخ الحكيم وقد أنهكه السكرى.. تلتف من حوله حفيداته يشهرن في وجهه شاشات الجوال التي تزف آية الطائفين حول البيت العتيق ، فيحمد الله على عودة آية الطواف إلى نواميسها بعد جائحة (كرونا)..

عند حلق السطح تطل هي على جارتها العجوز كعادتها ، ولقد أتقنت تقمص بعض قروية جاراتها التهاميات والسروييات.

فقد نجحت في تثبيت أقراص البر في جدار التنور الأسطواني دون أن ينفلت العجين إلى وهج الفحم الملتهب..

الحفيدات حول الجد يزفن إليه خبر إجازة العيد.. مرهق هو من تلاشي السكر في دمه.. يواصل صيامه بإصرار.. يحاول إقناع زوجته التي تنحني على التنور تخبز أقراص الشعير والبر.. يقنعها أنه على ما يرام..

يسأله الحفيدات :

- يا جد..يا جد ماذا كنت تفعل في إجازة العيد الطويلة؟ وكم ثوبا
كنت تقتنيه للعيد من المول..؟!!

يرفع رأسه مثقلا ويرد:

- كان لي (ثوبُ صَوْنٍ) ،

وربما كنت محظوظا من بين أترابي ، فلم يكن لأحد منهم إلا ثوبٌ
واحدٌ لكل الأيام والعيد سويا ، وكانت إجازة العيد يوما واحدا لا
غير..

وكم كان شاقا أن ندوّن مذكرةً لنطلب من مدير المدرسة رخصة
للإجازة ليلة الشك لنغتسل ويغسل كل زملائي الثوب الوحيد في
أعلى فج الماء في الجبل استعدادا للعيد..

حديث الشيخ الحكيم كان جذابا وكأنت كل أساطير جبال (عسير)
تلفه.. يسحر الجارة الأطلسية التي أطلت من حلق سطحها لتصغي
لعذب حديث الشيخ مع الطفلات الصغيرات وهو يخبرهن أنه ما زال
يحتفظ بـ(ثوب الصَوْنِ) ، وبالرغم من اكتظاظ خزانته بالثياب
المخملية والبشوت والأشمغة الفاخرة التي يوده بها أبناؤه وأحبته
يبقى (ثوب الصَوْنِ) أعز ذكرى على قلبه..

يغفو الشيخ من أذى السكري الذي ينخر قواه في مقربة أذان
المغرب، وفي مفارقة بين سكون صوته وتعالى صيحات الجارات
تدوي من جراء سخم الدخان المتصاعد من سطح الجارة
الأطلسية.. دخان كثيف غطى سطح بيتها نحو السماء.. نحو شعاع
القمر الذي يحجبه سحاب (أبها).. تقفز من حلق السطح إلى سطحها..
تكاد تلمح طيف الشاعر من بين الدخان يحترم لحافه..ومن بين تعالي
صيحات الجارات المعتقات والدخان المتصاعد والقمر الذي يبدو

كشمس أشرقت من الغرب ، من بين كل هذا يتجلى المسرح موحيا
بارهاصات نهاية العالم.. هي نهاية العالم !
احترقت أقراص البُرِّ، وتفحمت في أغوار التنور ، وأفطر الشاعر
دون فطور وهي تصغي إلى رواية (ثوب الصَّوْن) ثوب العيد..

مُنِيْمٌ بِهَا وَيُهْمِلُهَا..

مُولَعٌ.. وَلَهَانُ.. مُنِيْمٌ بِهَا.. لَكِنَّهُ يُهْمِلُهَا..
يهجرها لفترات طويلة.. هي هَرَمٌ.. عوالم لا متناهية..
أخذت بيده.. كان مولعا بها منذ أمد بعيد.. رافقته في دربه.. أدت معه
رسالتها التنويرية.. أنارت بصيرته.. عَشِقَهَا.. لم يكن بمقدرته
فراقها.. عاشت إلى جواره قريبا منه يتقاسمان الحجرة الصغيرة

الوحيدة التي كانت تسع كل أحلام الطفل والصبي والشاب الذي
كان..

راففته وفتية سخية.. تنتقل معه بين السراة والتهائم في حله
وترحاله.. حين يتمعن في طياتها يلقي عوالم سحرية مخملية.. حكايا
البشر.. يلقي دروبا نورانية تقوده إلى الله.. إلى ملكوت السماوات
والأرض.. ارتوى من ينابيعها.. نضج..

ارتقى أرقى المناصب.. كانت هي دائما هنا برافته..
أمرٌ ما حدث..

صارت تفتنه أطيافٌ مغرية تطل عليه من نوافذ يزفها إليه عصر
جديد.. أغرته ألوانها.. فتنته كما فعلت مع كل الرواد المولعين الذين
كانوا يهيمنون بها..

أهملها كما فعل الجميع..

صار يهجرها شيئا فشيئا.. يدعها إلى انزوائها في حجرة مُرقهة مُترفة
بالأثاث الفخم والتكليف المنعش..

هي في مخدعها صامته.. جاثمة.. ساكنة..

يزورها من حين إلى آخر.. تلقاه بذات الكرم والجود الذي عهده
منها.. تجيب عن كل أسئلته.. ترويه من كل الشتات الذي يحدثه في
جسدها البارد المتصلب الذي هجره كل روادها..

يفتعل شيئا من الوفاء.. يجلس على الأرض يبعتها على صقيع
البلاط وإذا لقي ضالته في بحثه اللامبالي يتركها شتاتا على الأرض
ويمضي..

تُطل عليه زوجته الروتينية تصعقه بصرخة توعدية :

- هَكذا .. هَكذا.. البارح بَرَك رَبَّتْها وأَعَدتُ النَّبويب بعد الفوضى التي
تحدثها دائما في الرفوف..

خَلاصَ ما نَزِيدشُ نُرَبِّها..

يحاول التخلص من التعزير..

- خَلِيَّ كل شَيِّ كما هو على الأرض..أبحث عن معلومات ما وجدتها
على قوقل..

مكتبة ما زالت طفولية..بريئة..صامته.. ثرية بكتب بعمر شقاوة
شاعر..

هي مكتبة شاعرنا "بُو مَصْنَف" مُهْملة مُبعثرة يَنثر كتبها هنا
وهناك.. دواليبها تنتقل بين الدور الثالث والدور الرابع في المضيفة
حسب المواسم..كتب على الأرض..على المكتب..على
السريير..صفحات مفتوحة ممنوع طيها حتى يعود إليها ليسجل
المعلومة التي لم يجدها في قوقل.. وفي خضم كل هذا المخاض
زوجة روتينية تعيد تبويب أكثر من ٥ آلاف كتاب مبعثرة بين السراة
والتهايم ، وأمنيته الوحيدة أن يقتحم بيتها لص أمين ممّن تبقى من
أوفياء الصفحات الورقية ليسرق المكتبة كلها..كلها..كلها...

تري إلى ماذا كان يُصغي؟!

كان سريره ممتدا فسيحا يسع قفزات طفولتي الأولى.. فإذا خرج
لصلاة العصر أسرعت لأتنطط عليه وأمرح فأزعج الهرّ الكبير
(نمير) الذي لا يفارق المخدة باسطا ذراعيه بالوصيد.. يفجأني

والذي حين يعود من المسجد ، لكنه يدعني ألهو قليلا أقفز وأتدحرج
إلى حين يُدويّ البيت برنات الساعة العملاقة المعلقة في غرفة
السفرة بعض دقائق تُعلن إقصائي من لعبتي المفضلة..

يتأكد والذي من موعد برنامج المقدس.. يُخرج الساعة الفضية
المعلقة في صدره بسلسال طويل ، يخرجها من أغوار جيب ثوبه
ليتأكد من الوقت ، ثم يحدق فيّ بعينين متوهجتَي الصفرة حاسمة :
(يالله أقصدي ربي.. يا الله اربحي).

أنسحب مُترددة نحو الباب يملؤني فضول شرس لأعرف لماذا
يُخرجني من الغرفة كل يوم في نفس الموعد ، وأنا في الرابعة من
عمرى.. يقتلني الفضول ، مُتطفلة كروية الشكل لا أطول عين
المفتاح..

أقف على حافة قدمي.. يخونني التوازن من بدانة جسمي.. أقع على
الأرض ثم أعيد الكرة مرة أخرى.. أحشرُ عينا واحدة داخل فتحة
المفتاح لأرى والذي يغمسُ وجهه داخل المذراع تلاصقُ أذنه مفاتيحه
متجهّم الوجه غاضبا تنهمر دموعه وسبابئه وإبهامه في حركة
مستمرة يحرك المفاتيح يمينا وشمالا فأتساءل : يا ترى لماذا يجلس
هكذا؟ ولماذا يحشر رأسه داخل المذراع؟! وإلى ماذا يصغي بكل هذا
الاهتمام والتركيز؟!

- لماذا كان والذي ينزوي في غرفته في هذا الموعد بعمرى
طفولتي ويجلس هذه الجلسة كل يوم في نفس هذا التوقيت مصغيا
بكل هذه الجدية وهذا الاهتمام ، وعلى قسماته حزن عميبييق..؟!
تمدرستُ وصرتُ أدفع الدينار الفلسطيني تبرعات للثورة الفلسطينية..

في الفصل الخامس والسادس - ككل جيلي - عشنا وجع (وعد بلفور)
من خلال منهج مادة التاريخ ، وبدأتُ أصغي مع والدي إلى (صوت
العاصفة) - صوت الثورة الفلسطينية الذي كان يُذاع الساعة السادسة
مساءً ، وأدركت لماذا كان يحرك باستمرار مفاتيح المذياع ليضبط
الإرسال من جراء مؤامرات التشويش على البرنامج ، ومثل كل
جيلي أورثني والدي وجع فلسطين..

فرحة..(البطاطا)..

(فرحة لن تعود.. فرحة وكت)..

* لم يكن شغوفاً بالفلسفة ليتوَعَّل في نظريات تُعرِّف العمل ،
وبالتأكيد لم يكن على دراية بدلالة (الأثر المادي النافع) كمُصطلح
مُعقد ، وكل تلك المقالات الجدلية فيه تُثبت نظريات وتنفيها.

هو فقط كان رجلاً يؤمن بالعمل كقيمة وكعبادة ويربي بنتيه على أن
المال يأتي من تعب.

بُستان (الفيلا) والبستنة كانتا الورشة والميدان الذي يقوم على مبدئه
هذا.

والدي..

رجل إنسان ككل إنسان في ديرته.. في مدينته.

في حيّه..

في بستانه..

تدفعه فطرة المزارع..

تتماهى مع كل حفنة طين غير مزروعة تصادفه ، فلا يتحمل ذلك ،
ويعاقر التربة والماء ببذرة يغرسها ، وكنا جيلاً بعد جيل من الأطفال
مثل آبائنا مزارعين بالفطرة نستوحي حبنا للأرض من خضرة سهل
(متيجة) و غابة بينام وأماني السد الأخضر.. كلنا مزارع صغير في
مدينتنا المنتجع بين جبال و غابات و بحر وأودية دائمة الجريان ،
عُزِّرت فينا ماهية المزارع بشعار (الرئيس بومدين) : لكل طفل
شجرة.. فغرس كل طفل منا شتلة في غابات (السدّ الأخضر)..

في ذلك السد المنيع من الغابات الممتد من أقصى الشرق إلى أقصى
الغرب الجزائري عند بوابة الصحراء الكبرى شمالاً تحسباً لزحف
الرمال والتصحر..

كنت ككل طفل في المدينة وفي الحيّ أسندت إليه مهام في البستنة في بستان (الفيلا) ، وذلك على مدار الدورة الزراعية في السنة.. غرسُ الخُضر السهلة..

- بذر زريعة الطماطم.. الفلفل مع مراعاة التباعد ، ثم نقلها وربطها على القصب حتى لا تسقط الثمرة على الأرض..

- قلع الأعشاب الطفيلية من بين الفول والخرشوف و غير ذلك..

- السّقي بنظام حسب حركة الشروق والغروب وخاصة في الإجازة الصيفية ، وآه من سقي (ثوار لعشيّة) (ورد القطيفة) ودلاله وشروطه في نظام السقي بالرش..

- تغليف عناقيد العنب بالجريدة حتى لا يستغلني العصفور الماكر ذو المنقار الطويل ينخر حبات العنب بسوء نية.. عنب (حَمْرُ بُو عَمْر والمُوسْكا والفرانة) ، وما أكثف تلك الكروم اللامتناهية التي تغطي حديقة (الفيلا) وتتشابك مع أشجار الليمون والبرتقال و(المشيمشة) و(الأفوكاتو)

تتخللها أغصان شجرة (سلطان الغابة) و(مسك الليل) و (الليلك) الفارعات من الشبك خُضرةً وثماراً و عطوراً.. رحلة صراع مع نوبات الحساسية والعصفور الذي يصنع خمراً داخل حبات العنب ليعود إليها بعد أسبوع يترشف نبيذه ، فأقصى من قبل والدي ، ولا يمنحني مصروفي ذلك اليوم..

مهام ومهام وأصعبها تلقيح أشجار الفواكه ، وأصعب وأصعب من ذلك فرش الشبك على بساط الثلج حتى لا تغوص حبات الزيتون فيه ، وتسلق شجرة البرقرق العملاقة ، وقطف الثمار الناضجة حتى لا تسقط وتتعفن وأصعبها بكثير ذلك السقوط الحر الذي كان يهوي بي

من أعلى غصن إلى قاع النبع تحت الشجرة حين تفاجئني عنكبوت
شمطاء صنعت بيتها بين الأغصان فأخربته فأصرخ رعباً وأهوي.

في بستان والدي كانت تثقلني مهام وتفرحني مهام.. تفرحني كل
الثمار التي أجنبيها من جوف التربة.. الجزر.. اللفت.. البصل ،
وخاصة البطاط وما أدراك من فرحة البطاط!! فحين أحفر بالفأس
الصغير وأخرجها بضع حبات من بين التربة تغمرني فرحة لم
ألاقيها أبداً من بعد زمن بستان أبي..

لم أشعر بتلك الغبطة أبداً بعد حبات البطاط وذلك رغم النجاح في
الدراسة.. رغم المكافآت وبعض الجوائز ، وبعد ذلك الميراث
والراتب.. تيقنت أنها فرحة لن تعود ، فرحة ولت.. فرحة البطاط..

هل كانت بسبب نجاحي في إخراج البطاط دون أن أخربه بالفأس؟ أو
كانت فرحة لذلك البريق الذي كنت أستشعره في عيني والدي وتوهج
لونيهما الأصفر؟ أم كانت فقط لتقاضي ذلك الأثر المادي النافع الذي
كان أبي يُزوّده في مصروفي لإتقاني للبستنة فأسرع به إلى مخبز
الفرنسي (بلائكير) وأشتري (تورطة) الكرز؟!..

(من مذكرات مزارعة صغيرة)..

على ناصية الطريق - الموت وفاءً..

لم تصغ إلى قرقة باب البيت هذه الليلة ، ربما هي على حواف
الوادي تطارد الخنازير الوحشية التي تعبر (وادي قریش) من جبل

(بوزريعة) المقابل للهضبة وبعض الذئاب والحنشان ، فقد تجمّد
السيّل في مجراه ، وغطّته ثلوج شهر (ديسمبر) ، وأمسى عبورهم
إلى بساتين الفلّ سهلاً..

تلك الليلة الشتوية كانت حالكة الظلمة ، ووالدي لم يعد بعد من صلاة
المغرب ، وكان دور والدتي في تحضير عشاء (للاً خَمِيْسَة) جارتنا
العجوز الوحيدة ، فكل يوم يتداول الجارات على إعداد طعامها
ورعاية أمورها..

كانت (خَمِيْسَة) دوما تبكي وتَنظُم أشعارا شَجِنَة تشدوها عند المغرب
تناجي بها أهلها الذين رحلوا عنها إلى وجهة - ما - لا عودة منها ،
وحين رفضت مرافقتهم تبرأوا منها فبقيت وحيدة..

في تلك الليلة الحالكة تَمَرَدْتُ على والدتي ، ولم أقبلُ أخذ العشاء إلى
جارتنا..كنت مُخرجة لأنه كان طبقا من (الرّفيس) ولم تضع والدتي
اللحم عليه ، وكان اللحم وفيرا في قدر المرق..

حين حضر والدي أرغمني كلاهما على أخذ عشاء (للاً خَمِيْسَة) إليها
وهما يتبادلان نظراتٍ تأمرية ، وأخبرني والدي أنها في ذلك اليوم
وبعض الأيام في السنة تمتنع الجارة العجوز عن أكل اللحوم..

خرجتُ مُتردّدة من البيت أحمل الصحن ولم تحضر (ريتا) لمرافقتي
وحمائتي..أقفز على الشبّوك القصيرة التي تفصل كل بساتين الفلّ
في (حيّنا بنّ صِيام) أعلى (هضبة الأبيار) من أعالي مدينتي المُنتجع
(الجزائر)..

أتوغل خائفة في البساتين من حيوان (الفَنك) وزوجته وبعض
صغاره الذين كانوا يتسللون من بستان جيراننا من مدينة (الألف قبة

وقبة) من واحة (وادي سوف) يربونهم إلى جانب الغزلان والإبل الصغيرة ، ثم يأخذونهم للمحميات الطبيعية..

لم تظهر (ريتا)..

فجأة مخلوق ضخم يهاجمني.. يعضني من ساقِي..

أصرخ.. أبكي..

يخرج كل الجيران بالكشافات..

هذه (ريتا) منكبة على الأرض عند قدمي تملأ عينيها طبقة من البريق.. تحبس دمعاً لا ينهمر.. تصدر أصواتاً تعبر عن نحيب.. تقوم.. تمسح برأسها على ساقِي.. تستقيم.. تضع أطرافها على صدري ، ثم تنحني تلحق مكان قضمها ساقِي..

إنها تعتذر.. تعتذر.. لم تعرفني في حلقة تلك الليلة.. الكل يُوبّخها وهي مصرة على الالتصاق بي..

تتبعنا إلى السيارة حين أخذني والدي وجارنا الممرض (شيتا) إلى معهد (باستور) بحي (العناصر) لأخذ إبرة ضد الكلب.. وحين عدنا أصرت على الدخول إلى (صالة) البيت ، وقضت الليلة كلها عند باب غرفتي..

قررت (ريتا) بعد تلك الليلة حازمة عازمة مرافقتي كل يوم إلى باب المدرسة أعلى الربوة في الحي رغم الجو الماطر والثلوج تنتظرني إلى أن أخرج ظهراً و ترافقتني في الفترة المسائية ذهاباً وإياباً..

ذات مساء عند خروجي من المدرسة يفاجئني

جمع من الناس يلتفون حول أمر ما ، تسألُ من بينهم لأجد الكلبة
(ريتا) ممددةً عند مُقدّمة سيارة أحدهم..

لقد دعسها وهي تنتظرني..

أسرعتُ إليها باكية..حزنتُها وهي تحتضر.. تحاول أن تقوم لتلعق
من جديد ساقِي اعتذارا.

كانت نظرات قهرتني وفاءً..

هدمتُ أنفاسها ، وارتخى رأسها في حضني وكلانا على ناصية
الطريق..

ناصيةٌ وحافةٌ رصيف شهدتُ مسرحا من الموت وفاءً..

دموعٌ مُعْتَصِمةٌ..

- أيام أخيرة..

بخطى متثاقلة يخطو.. يقف في حديقة (الفيللا)..

شجن مهيب يرسم ملامحه..

يمسح بكفه على شجر السرو والصنوبر وبعض شجيرات الزيتون
والليمون التي تحف الشبك الذي يفصل الحديقة عن الشارع..

يتقدم نحو شجرة ورد القطيفة ومسك الليل والليلك يُعْتَقُ دموعا
يحبسها تحت جفنيه.. تفضحه صفرة وشفافية عينيه أمام بنتيه..

يستنشق أغصان الشجر.. يهزّها.. ينفذ عنها ركام الثلوج.. يتنهد
واثقا أنه لن يشهد الربيع القادم تفتّحها..

يلقي نظرة أخيرة على الحديقة ، ثم يدخل بهو البيت.. تُسرِع إليه
زوجته.. يدخلان الغرفة.. يغلقان الباب.. يُوشّوشّها..

تبقى البنتان راصدتين خلف الباب تصغيان إلى بكاء والدتهما وإلى
صوته المختنق قبل أن يجهشا سويا بالبكاء.

- قدّر الله وما شاء فعل.. يخبرها

في الصباح اجتمع (الكنسيلتو) الطبي وأجمعوا أن كليتي تآكلت تماما
، والكلية الأخرى تعمل بأقل من ربع طاقتها ، ونسبة التسمم في دمه
مرتفعة جدا و إنها مسألة أيام..

تبكى (حنيفة) زوجته ، ثم تكبح نحيبها..

الأعمار بيد الله.. الأعمار بيد الله..

وتواصل :

- ماذا سنقول لابنتينا ؟ صارتا تفهمان كل شيء ، وهما الآن تبكيان خلف الباب..؟

- حين أدخل في غيبوبة فاعلمي أنها المرحلة الأخيرة ، أخبريهما أنني أصبتُ بالوباء الذي أصاب العالم في هذا الشتاء..

دخل السّي (لحسن) في غيبوبة ، ثم في سكرات الموت ، وأخبرت (حنيفة) بنتيها أن وباء (الأنفوانزا) الذي حصد العالم والبلد ذلك الشتاء أصاب والدهما ، وأشرفت هي وابن أخيه الطبيب على السهر عليه .

- مُتقلُّ بالأسى ..

كان يبدو متقلا بالأسى في الأيام القليلة التي عاشها قبل الغيبوبة ، متقلا باستبدال وزر استعماريّ مقداره قرن واثنان وثلاثون سنة..

كان معطوب حرب عاش بعد الاستقلال مجاهدا مكابرا لكل شبر وضعت آلة التعذيب بصمتها على جسده لتخترق كليته بعد ذلك رصاصة المنظمة السرية الفرنسية (O A S) في أوائل الستينات من جراء الطلق الناري العشوائي في الطريق على الأهالي..

بقي عقدين من الزمن يتحدي كل تلك الآلام ويؤمن أن حكمة الله في أن يطول عمره تكمن في رعاية بنتيه..

يُجلِسهما إلى جواره يُحدّق فيهما.. يُرَسِّخ ملامحهما كآخر صورة يرحل بها.. رأسه منقل بدم مُتسمّم وبالهوموم :

- ستظلمهما أعراف القبيلة حين تؤول

ولايتهما إلى أحد أعمامهما ، ربما ستجرّدان من ميراثهما بسوط
أحكام العشيرة الظالمة ، ربّما سينتزع (مشروع التأميم) ما أبقى لي
من أرضي وبيوتي وحلالي؟! يُخَمّن ويخمن.. يحاول ترتيب بعض
أمور بنتيه.. يُسَلّم أمرهما إلى الله ثم يطلب من (حنيفة) أن تُشغّل
شريط المطرب الشعبي (قرّوابي) والذي أحبّ كثيرا سماعه في أيامه
الأخيرة ، وذلك بعدما تساعده بنتاه في ترديد الورد ، وحين يشتد
أنيبه من الألم يأمر بنتيه بمغادرة الغرفة.

- كانت إلى جواره..

هي الأخرى كانت هنا إلى جواره ، لم تفارقه ، تارة تجلس عند رأسه
، وتارة تحط رأسها الصغير على صدره كأنها تواسيه ، وإذا اشتد
أنيبه توَسّدت قدميه..

عينها الخضراوان

منكسرتان ، تستشعر حتمية الفراق العاجل.

إنها لحظة الاحتضار..

يُخرج ابن العم الطبيب البنّتين من الغرفة..الإمام إلى جوار (السيّ
لحسن) مع صديقيه المقربين وزوجته..

صمت رهيب تتخلله عبارات الشهاداتتين..لكنها هي هنا صامدة إلى
جواره ترفض الخروج ، تتسحب إلى كفه الأيمن.. تُمسك بإبهامه
وكانها تأبى رحيله..يستشعر في غفوة الموت لمساتها..يحرك إبهامه
المرتعش

من جلالات الشهادة كأنه يواسيها ويُطمئنّها.. سيحفظ ذكراها في
قلبه إلى جوار بنتيه إنه يرحل..يرحل..

يلفظ أنفاسه الأخيرة..

يُردّد الحضور :

- الله أكبر..

الله أكبر..

لا حول ولا قوة إلا بالله..

إنا لله وإنا إليه راجعون..

رحمك الله (السّي لحسن) ، عشت بطلا..ستبقى وطننا..

- الرحيل..

يغطّي الشاب الطبيب جسد عمّه.. لكنها ترفض ذلك.. تُصدر أصواتا كأنها احتياج..

تحاول سحب الغطاء عن وجهه.. ترفض رحيله..

ذلك المساء كان ميقاتا للموت..

مات السّي (لحسن) وتوالى أخبار الوفيات في البلد وفي العالم تنعى أخبار الهالكين بالجائحة ، وكانت البنّتان تبكيان أبا ، وتبكيان رئيس الجمهورية..

رحل الرئيس (هواري بومدين) ورحل والدهما..

وفي ذلك المساء رحلت (للا خميسة) أيضا بالوباء.

أعلن إمام المسجد في الحي خبر وفاة الرئيس ووفاة السّي (لحسن) ووفاة (للا خميسة) العجوز الوحيدة التي تقطن بجوار الفيلا في الحي

، وأعلن مقر توديع وجنزة الرئيس والصلاة عليه ، بعدها أعلن عن موعد الصلاة على (السي لحسن) وتشيع جنازته أيضا.

استغرب كل أطفال الحي حين صمت الإمام ولم يعلن موعد الصلاة على (للا خميسة) وموعد تشيع جثمانها..كان ذلك لغزا كبيرا في أذهان كل

الأطفال في الحي ، وفي الصباح الباكر حضر قليل من الرجال إلى بيت(للا خميسة) يلبسون الأسود وقبّعات غريبة لا تغطي كامل رؤوسهم تتسدل منها ضفائر طويلة متشابكة مع لحاهم المشوشة التي تتعدى صدورهم ، وأخذوها إلى مقبرة بعيدة غير مقبرة الحي..

دموع مُعْتَصِمَةٍ..

في تلك الليلة اكتظت (الفيلا) بالحضور من أهل وأقارب وأصدقاء(السي لحسن) من رجال ونساء..كانت دموع البنيتين تنهمر في صمت ، وكانت زوجته تتقمص القوة والصبر ، وكان الحضور يجهد بالبكاء لا لمنظر اليتيمتين ، بل لمنظرها..

كانت تقبع عند رأسه ، ثم تحوم حول جسده المُتبرّد..

تجلس عند قدميه ، ثم تعود عند رأسه فصدره..تحاول استشعار أنفاسه.. وحين تتيقن أنه صار جثمانا هامدا تعود إلى جوار رأسه ، تُكرّر دموعا تستدعيه من أغوار حزن عتيّد..تحبس دموعا اعتصم يابى التبدد على وجهها البرئ..دموعا لا ينضب..

تخبر حزنها أنه حزن وُلد كبيرا وسيبقى كبيرا.

انطلق موكب الرئيس الجنائزي شرقا نحو مقبرة (العالية) ، وانطلقت جنازة (السّي لحسن) غربا نحو مقبرة الحي ، وبقيت البنتان متشبثتين بشبك (الفيلا) تودعان والدهما يسودهما غسق ذلك الفضاء الرهيب الذي يقصي المرأة من تشييع الجنائز في الجزائر زمن مستمر في ديمومته يجلد بشعار (عيب على النساء توديع موتاهن).

لكنها كانت هنا تحطم كل تلك الضوابط..

تدفعها دروب حزن عُبد بجوارحها الهشة..

كان بياض لونها يَنضمُّ إلى كل البياض الذي يلبسه مشيعو الجنازة..
تتبع الموكب الجنائزي.. تلتصق بالسيارة التي تقل نعش صاحبها..
تستقيم إلى جوارهم عند القبر.. تشمّ كوم الثرى الذي يغطيه..

لم تغادر المقبرة بعد ذلك ، وراحت البنتان تبحث عنها في كل مكان عاملة بوصية والدهما في رعايتها ، لكن بحثهما المتعنت كان دون جدوى فلم تعد بتاتا إلى البيت.

بعد أيام تسللت البنت الصغرى من البيت خفية لتزور قبر والدها لتجدها نائمة على القبر وحين نادتها : - مَوْشِيْطَة...

مَوْشِيْطَة ، أشهرتْ مخالِبَها فيها ولم تعرفها..

عادت هرة (السّي لحسن) إلى مرحلة التَّوَحُّش إلى زمن القطط البرية المتوحشة حزنا على صاحبها ، وكانت البنت الصغرى تحاول سقيها حليباً وتحط لها الغذاء ، وحين تعود لتتفقدّها تجد الزاد كما هو لم تقنّتْ به (مَوْشِيْطَة)..

اعتصمت الهرة عن الأكل والشرب كاعتصام دمعها..

في إحدى الصباحات وجدتها البننتان عند قبر والدهما جئة قاسية
تغطيها أكوام الثلوج..

المنصة الإلكترونية - دَمْعَةُ بابا..

- ستاربكس كافيه..

- بابا صديقاتي عازمييني على (ستاربكس كافيه) هذه الليلة للاحتفال
بعقد قراني..

تستأذن زهيدة..

- وما دخلي يا بنتي؟ يردّ (السّي بو عمامة)..

- كيف يا بابا أنا دائماً أستأذن منك في أبسط الأمور..؟!!

- لا دخل لي فيك.. لم أعد مسؤولاً عنك..

- كيف يا بابا أنا سويتُ أمراً أغضبك مني؟!!

- أنتِ نسيتي يا حبيبتي أنكِ منذ ظهر هذا اليوم صرت في ذمة زوج
ومنه تستأذنين في أبسط أمورك؟.. (ظهر هذا اليوم يا بنتي خَرَجْتِ
من تحت جناحي وصرت في رَقَبَة راجل)..

هذا الظهر تم عقد قرانك حين نطقتُ أمام المأذون والشاهدين :
زوّجتك مُوكّتي بنتي فلانة على الصداق المسمى بيننا ، ورد زوجك
قائلاً :

وأنا قبلت هذا الزواج..

انهمرت دموع العروس ، وأخفى والدها دموعه وواصل :

- على كل حال (أنت راكٍ مرّت راجل) ، أنت في عصمة زوج ومنه
تستأذنين في كل شيء ، وفي كل الأحوال لم أستوعب بعد مقاهي
تجلس فيها النساء ليلا. يواصل :

(ستار بكس) أو كيفما يسمونه هو مقهى ، والمقهى للرجال ، (لكنّ
أزّمان تبتدل يا حبيبة ، ومنك لراجلك في هذه الموضوعات التي ما زلت
لا أستوعبها..

يواصل :

(نسا يفتعدو في القهوة) المقهى وفي الليل.. واعرّه بالزّاف عليّ
بالصّحّ معلّيش.. معلّيش أزّمان سلّطان وكلّش يتغير) ، أنت في ذمة
زوج الآن وهو الذي يقرر كل شيء..

- شيمة (السّي بوعامة)..

ينسحب (السّي بوعامة) من غرفة ابنته حتى لا ترى دموعه..

يجول في البيت مرتبكا.. يدخل إلى كل الغرف.. يخرج إلى الحوش ثم
يعود.. يدخل إلى المطبخ يُقلب كل المقاضي التي أحضرها لعشاء عقد
قران ابنته (الملكة).. لقد أحضر كل شيء منذ أن خُطبت ابنته
(زهيدة).

يجوب كل صباح أسواق الغنم في مدينة "أبها" ومحافظة "محايل
عسير" وصول ويجول بين قمم "السّروات" وأودية "تهامة" لعله يجد
خرفانا تليق بمأدوبة (المشوي) على طريقة الصحراء الجزائرية
وأحضر أشياء من ديرته.. (الكسّكس والثريدة والطاجين لحلو

ومستلزمات البَقلاوة و حلويات الجوز واللوز والزيراي ومُتَبَّلَات
الخرفان المشوية على طريقة الواحة)..

لم يستوعب الحاج (بُو عَمَامَة) ابن الواحة ابن شمال الصحراء
الجزائرية ، لم يستوعب بعدُ السرعة التي تم بها عقْد قران كريمته..
شيمُّه تصرخ فيه : كيف يتم ذلك دون أن يأخذ الرجال واجبهم في
العشاء الذي يليق بابن الواحة!!؟

- الحضور على المنصة الإلكترونية..

تفاجأ الكل في ذلك الصباح برسالة نصّية تُحدِّد موعد الحضور على
المنصة الإلكترونية :

(الرجاء فتح الرابط والتواجد على المنصة الساعة الواحدة ظهرا من
نفس اليوم)..

الكلُ اعتقد أنها جلسة (أونلاين) للتأكيد على بعض البيانات
كالإمضاءات والبصمة والهويات وتأكيد توثيقها لدى الوزارات
المختصة.. الزوج.. الزوجة.. وليّ الأمر.. الشاهدان..

الكل مرتبك.. أبُّ أكاديميِّ باحثٍ عالمٌ يلقي بكل هذا خلفه!!

إنه على الشاشة سُحنةٌ من دَفَق أبوةٍ يرتجف من عمق إحساس جارف
، حين تفاجأ أنه في تلك اللحظة ستغادر ابنته عصمته إلى عصمة
زوجها..

كان كل ذلك الوقت يحاول أن يروّض نفسه على التماسك في تلك
اللحظة..

الشاهدان أكاديمي وأديب..أكاديمي في مُدرج الكلية يفتح الرابط بصعوبة ليطل على المنصة محاولا ضبط شكل رسمي أمام كل مؤسسات الدولة التي تباشر عقد القران..

الشاهد الثاني أديب راعي غنم مُزارع قد جهز منذ فترة (قلم الوزير) للإمضاء عند شهادته على عقد قران (زهيدة) ، فقد جهز لهذا العقد قلما يَكنزه للمناسبات الخاصة جدا ، قلما أهداه إليه وزير الثقافة في اليوم العالمي للشعر ، فشعرَ أن الدنيا ما زالت بخير ، وأن الشعر والشاعر لم تذهب ريحُهما بعدُ في زمن الرقمنة.

لكن في ذلك الصباح حاصرته هذه الرقمنة..كان نائما في مزرعته حين أيقظه جواله بالرسالة وهو شاعر من القرن الماضي أمي في التكنولوجيا.. استدعى كل الأحفاد وبني الإخوة الصغار من حوله في القرية ليفتحوا له الرابط ويدخل المنصة مُسْتَنًا..

كوب شاي وسيجارة يشهرها بيده في وجه مُطوّعناو(المأذون الشرعي) من المحكمة المختصة في منصة (أون لاين)..

يلتهم قرص برّ فطورا أمام الملاء من الوزارات المعنية التي تباشر عقد الزواج الإلكتروني والحضور الذي يطل عليه من مربعات لجينية على الجوال..

(زهيدة) العروس الدكتوراة الصيدلانية في فوضى من أمرها.. تستلّ يديها من كومة العجين التي كانت تحضر بها خبزة والدها بين عجبتها وكل المُعادلات التي كانت تحلّها تحضيراً لبحثها ، تُلقى بكتلة العجين على صفحات سجّلت عليها نتائج الخواص الكيميائية التي توصلت إليها في أبحاثها..

ترجّ بكل ذلك هنا وهناك وتحضر على المنصة.. تتصلّب مشاعرها
من سرعة الموقف..

العريس.. المهندس المرموق يُنهي داومه ظهرا.. يتجه نحو المسجد
لصلاة الظهر.. بعدها يدخل أسواق (العثيم) لاقتناء بعض المقاضي
ليخلد إلى قيلولة قصيرة في شقته.

قليل من أيام العزوبية والحرية في حوزة قبل أسره الأبدي في العش
الزوجي يُخمن :

- ربّما سألقى رفاقي بعد العشاء للسمر..

كان آخر من يفتح الرسالة النصية..

يتفاجأ عريسنا المهندس المُحكك بتلك الرسالة.. لم ينجح في تحميل
التطبيق من هول الخبر..

إنه سيتزوج بعد لحظات!!!

في سوق (العثيم) يستعين بالشباب.. يُحمّلون له التطبيق.. يفتحون
الرابط..

إنه أمام الأمر الواقع : عريس سيُعقد قرانه للتو..

- عقد القران (الملكة)..

الكل حاضر على المنصة الإلكترونية تحت إشراف الوزارات
المعنية والمحكمة..

المأذون يباشر خطوات العقد..

يخاطب العروس في شروطها..

لا ترد..

يتصلب كل شيء فيها.. لسانها.. كلماتها.. لا تقدر حتى على الإشارة..
يقرر المأذون قراءة الشروط على الزوج.. يوافق العريس مستسلماً..
يخاطب المأذون (السّي بو عُمّامة) :

- قل : زوجتك ابنتي فلانة على المهر وقدره..

يصمت قليلاً (معقود اللسان تأسر كلماته دموعه.. تعنصم في مقتلته..
صمت مهيب على المنصة..

يُرِدُّ (الحاج بو عُمّامة) تلك العبارات مُتقطعة كلمائه بشهيق صامت..
يرد (مُحمّد) العريس :

وأنا قبلت هذا الزواج..

الشاهد الأول :

- وأنا أشهد على هذا الزواج..

الشاهد الثاني :

- وأنا أشهد على هذا الزواج..

- دمعة بابا..

تم عقد القران.. يبارك المأذون للزوجين ، وقبل مغادرة المنصة
تصلهما رسالة نصية من المحكمة : (مبارك لكما ، تمّ توثيق
الزواج..).

انصرف الحضور كلّ في مدينته ، بين مدينة (أبها) ومحافظة (رجال
ألمع) والعاصمة الرياض.

حفلٌ من العمال والمتسوقين يلتفون حول (محمد)..

لقد حضر جمع غفير هذا الزواج إلى جانبه في سوق (العثيم) في
مدينة الرياض..

تزوج وهو يفتني مقاضيه ، والكل من حوله في السوق يواكبون هذا
الزواج الإلكتروني وهو يردّ على المأذون الشرعي : وأنا قبلت هذه
الشروط..-وأنا قبلت هذا الزواج..

يحضرون مشروبات و(كيكات)..يتحول سوقه إلى مباركات وفرح..

في بيت العروس خيم السكون..لم تعدّ أمها (للا جويده)

والأخ الأكبر (أسعد) بعدّ من الديار البعيدة بجهاز (زهيدة) من
اللباس التقليديّ الجزائري ، لباس حناء (الملكة) التقليدي ، وطقم كلّ
الأزياء التقليدية للعروس الجزائرية..

تلقت (للا جويده) خبر (ملكة) ابنتها كخبر عاجلٍ بشجن عميق.

(السّي بو عمامة) انسحب إلى غرفته تهزّمه دمعة كلّ الآباء..دموع
متمردة رغم صلابة رجولتهم..دموع شرسة حامضة ينحتّ لظاها
أخايد على وجوههم لذكرى صبية كانت طفلة..

دموع متعنتة تحبسها عيون الرجال مكابرةً حين يسلم الآباء بناتهم
إلى أزواجهم..يواسون وقار تلك اللحظة وهيبتها بعمق إيمانهم بسنة
الحياة..

(السّيّ بو عَمامة) هو كل هؤلآء الآباء ، و يتساءل في تلك اللحظة :
هل سرعة التطور ستسرق منا الكثير من حرارة الأحاسيس؟!!!

لم أحتفلُ بزواج ابنتي في اليوم الذي ترقبته منذ ولادتها..لم أقمُ مآدبة
المشويّ الصحرأوي..لم...لم..لم..

دمعة الحاج (بو عمامة) لسرعة عقد قرانها محتبسة..

لم يستوعبُ فيها أن (زهيدة) لم تعد في ذمته..

نظر إليها وتلك الدمعة تُغشي عينيهِ مخاطبا :

- (يا بنتي من هذه اللحظة خرّجت من تحت جناحي وراك في رقبة
راجل)..

يطلب منها أن تُكلم زوجها لتستأذن منه في الخروج مع صديقاتها
للاحتفال بعقد قيرانها..

ويمضي إلى غرفته يوآسي نفسه :

- سبحان الله..

سبحان الله : (الطفلة زريعة كل بلاد)..

بعض أقداره..

(قَلَمٌ نَحْوَ السَّمَاوَاتِ)..

تصب الثريا آخر شعاع لها على كوم الخوص الذي ينسج به
نعاله.. ومع كل عقدة يكتمل بها هيكل النعال يحيك له ضياء النجم
الخافت دروبا لواحات سندسية من الآمال معها يأزف للرحيل قبل
أذان الفجر إلى سوق "الدرب"..

يحتذى الشيخ الحكيم بنعال الخوص الذي نسجه.. يشد أزره بحزام
وشفرة.. في جيبه صُرّة بها بعض النقود جمعها من بيع السمن
والذرة في سوق "رُجال" الأسبوعية..

في طريقه إلى سوق (الدرب) تتمايل النسائم التهامية مع طيب
عصابته تبشّره بتفوق الفتى في الغد المزهر..

يعود من السوق بما يلزم..

الصبي الناجح إلى الصف الأول المتوسط بثوب و غترة ولباس
داخلي وشبشب من البلاستيك " زئوبة" هدية ثمينة للفتى الذي
سيجتاز مرحلة مهمة تعليمية في مدينة (أبها)..

عند آفاق الجبل المُطل على السطح استعدت والدته بالفطور
والزوادة ..

نظرات أخيرة يصبها الفتى على نعال الخوص الذي لا يليق بمسالك
المدينة مُتخليا عنه بحنين جارف..

يتجهز.. يلقه بخور والدته بصوتها الشجن المتضرع إلى الله.. يتجهز
مُتأبطاً "الزئوبة" حتى لا تتلف من وعورة مسالك الجبال نحو
أبها.. بُودعه الأسرة عند صدر الجبل وبينها وبينه ليل يغشى ونهار
يتجلى ووعد نور الشروق يسترسل من نبضات قلب والدته تتردد
معها دعواتها : "ودّعت ربي.. ودّعت ربي" ..
ينطلق الفتى مع ثلّة من أترابه.

• الناجحون معه نحو قمم "امقرون" يعرجون من أغوار الأودية لا
يهابون صعود الجبال نحو شماريخ السروات.. نحو شماريخ العلم
والمعرفة.. تَهَلَّل.. تَهَلَّل.. جبل تهلل.. يمتطون المركبة التي تعبر بهم إلى
ساحة "البحار" وتعبر معهم براعم عبرت دروبا طويلة لتزهر..
يَتَعزَّب الفتى مع رفاق العلم.. تملأه فطرته الصوفية في كل جديد
يستكشفه في المدينة الفتية..

يتساءل عن ماهية الأشياء.. تناسخه مع التربة والزرع يرده إلى
هلامية صُهارة هذه التربة.. كل شيء خُلِق منها يتساءل : أين ينبت
الخبز الصامولي؟!!

ومع كل قطرة مطر ظهور تركض على الأرض يتجلى طهره
المهيب في قبس من فطرته القروية السويّة عند اكتشافه للزيتون
المخلل في بقالة ساحة (البحار) في أبها.. ينبذ تلك الرائحة.. بعفوية

يخبر رفاقه عن الرجل الذي يبيع خمرا أمام الملاء.. يتشاور مع رفاقه للتبليغ عن بائع الخمر المزعوم..

يخطو خطواته الأولى.. يعتمد على نفسه في كل أمور.. يتقاسم الرفاق مهام العزبة..

تتطور الأمور تدريجيا نحو الترف.. لقد ولّى زمن الحطب إلى (دافور وطباخة الكيروسين)..

زمن من النفط.. أولى الخطى للصبي نحو مذاقات مستحدثة.. لا يستسيغ فيها الزاد الذي لا يُطهى على نار شجر الطلح والسيال والسلام.. لا تروق له كسرة خبز مُزجت بطعم النفط.. نَقْلَةٌ صعبة يتخلى فيها عن مذاقات الفطرة.. لا شعوريا يُهمل احتياطات لهيب (الكيروسين) لتلتهم السنة النار ذراعه..

حان موعد الاختبارات وهو طريح سرير مستشفى (أبها)..

الفتى مُتفوّق وقد يفوته النجاح إلى السنة الثانية متوسط.. تتدبر إدارة المعهد الأمر مع إدارة المستشفى لينوب عنه في الكتابة ابن عمه الأكبر ذو الخط الجميل الحاصل على الشهادة الابتدائية قبل عقد من الزمن..

يُلبّي ابن العم الشّيّم نداء العلم.. يحضر إلى قاعة الاختبارات مع الفتى.. ذراعه محترق ملفوف بشاش معلق بسارية يُملي على الكاتب الأجوبة.. ابن العم الكبير ماهر مُتميّز في رسم الخط.. رسمُ حرفه يوحي للإدارة أنه قادر على الأجوبة ربما قد يكون هناك غش.. تقرر الإدارة إبعاده وتعويضه بكاتب بسيط من عمال الإدارة ذي مستوى ضعيف جدا.. كان ذلك.. لكن الفتى احتجّ ورفض أن تفوته علامتا الخط والإملاء لرداءة خط الكاتب الجديد وجهله بقواعد الإملاء..

قرر الكتابة بذراعه المحترق المعلق بشاش بسارية ماسكا القلم بين
سبابة وإبهام متعفتين رافعا قلمه نورانيا إلى السماء وكأنه يكتب
على أبوابها.. يكتب أجوبته.. تتصاعد قُدسية مع قلمه المتشبت بذراع
متفحّم.. تتصاعد أجوبته قلما وكلماتٍ شارةً للسماء تُلهمه نساءم تهامية
يقينا تقول له : لا تخش لظى اللهب إن مطر السراة معنا..

ومع قطرة المطر التي تلثم ذرات طين الجبل تصب بنانه علما
ومعرفة على الصفحات فيتمازج مداد قلمه مع طيب غرارتة مطهّرا
عفنَ جروح ذراعه إلى رحيق فتستيقظ أمانيه النائمة على فواده
الغض تبشّر الوطن بجيل مستنير..

(بُولْحَافٌ) و قلم الوزير..

طفولة ذات عيون مُحاطة بهالات سوداء كديار مهجورة في خرابها..

عيون ناخرة في الجباه غاصت إلى ما وراء عالم افتراضي تحت
أسر شاشات (الآيباد والآيفون) وأسر آخر صيحات في (موديلات)
الأجهزة الذكية..

أنامل ما تفتأ ملامسة الأزرار حتى ينسخ لها (الكيورد) كلماته..

مشهد ألفناه لأطفال وشباب في كل الأمكنة المفتوحة والمغلقة فنقول
مستسلمين: هذا عصر الرقمنة ، ولكل عصر معطيات حضارته..
حينها تَخَيَّلْتُ لو أهدينا لأحد من هؤلاء الأطفال قلما فما ردُّ فعله؟!..

نحن - الجيل المخضرم - نؤمن بكل هذا التحوُّل والتطور
التيكنولوجي، لكن نبقى مشدودين إلى سكبِ القلم..

نَحْنُ إلى ذلك البوح المناسب من نسغ قلم شاعر وكاتب ومفكر..

هكذا كان وزير الثقافة الفتيّ في ذلك اللقاء حين تلقى شاعرنا
(بولحاف) دعوته..

وزيرنا كان من المؤمنين بشعراء يقدسون وقع الأقلام..

لقاء..

حوار..

تبادل آراء بين جيل وضع أسس النهضة الأدبية ، وجيل فتيّ يستلم مشعل ركب هذه النهضة..

هكذا كان مسك اللقاء بين الشاعر المخضرم والوزير الفتيّ الذي يؤمن بمُسْلَمَة عنوانها (وقّع القلم في قلب شاعر) ، فأهدى شاعرنا قلمًا..

كان القلم من النوع الفاخر باهض الثمن لكنّ (بُو لحاف) لم يهتم بتلك التفاصيل، يكفي أن أهداه الوزير قلمًا ، فالقلم هو الهلامية التي تسبح في موائعها

نثرات أحرفه لتتشكل رموزًا ينحت بها أبياته..

لازمَ القلم المبارك جيوبَ ثياب الشاعر منذ تلك اللحظة ، وكأنه عثر من جديد على ماهيته..

كل من يصادفه يدرك أنه شاعر بهذا القلم الذي يمتطي ثيابه هو يعتقد ذلك..

بهذا القلم عاد إليه صبيُّه في زمن رقمي رُكِنَت فيه كُتُبُه وكُتِبَ رفيقته على رفوف مكتبتهما في سُبَات تتزاحم في كل الغرف..

لا أحد يريد كتابًا...

لا أحد يسرق كتابًا..

لا أحد يبحث عن كتاب..

كتبهم تحت وطأة الغبار في عصر الرقمنة..

بهذا القلم الذي يمتطي جيب ثوب شاعر شاعرنا وحيه صار من
الأعيان..

هو شاعر!!

يصدّق هذا رغم (الكامري ٢٠٠٧) ..

ما زال الوحيد الذي يقود مركبة يدوية في بلدان مجلس التعاون
الخليجي ، يتداول عليها مناصفة مع رفيقته التي تسطو عليها تخبطها
هنا وهناك..تزيد أثر تلك الخطبات سموا بهدايا ساهر..

هو من الوجهاء..

من المشاهير..

من الأعيان..

الكل يحييه..

الكل يبتسم له..

الكل يطلب منه خدمات تعيين في وظائف واسطات هنا
وهناك..الوافدون يطلبون منه نقل كفالتهم..

(بو لحاف) شاعر وكل هؤلاء يقدرسون شاعرا..

فقط اليوم اكتشف بالصدفة أن كل هذا الصيت..كل هذه الوجاهة
والاهتمام هي بفضل قلم الوزير.. ذلك حين أخبره أحد الأصدقاء أن
سعر هذا القلم غالٍ غالٍ جدا، ورجال الأعمال الأثرياء يقتنون هذه
الأقلام الباهضة الثمن ل(لكشخة) و(البرستيج)..

أدرك أن كل ذلك الصيت والاهتمام الذي أحيط به منذ هدية الوزير
كان من ورائه اعتقاد هؤلاء أنه رجل أعمال.. تاجر من الهوامير لا
لأنه شاعر..

عاد إلى البيت..

دخل إلى كل الحجرات المزدهمة بالكتب..

راح يحدق في كل كتبه وكتب رفيقته التي لا يشتريها أحد، ولا
يرغب فيها أحد، ولا حتى يسرقها أحد..

هو ليس برجل أعمال.. هو مزارع أفلسته مزرعته..

فشل في ترويح منتجاته..

لا أحد يرغب في خضار وفواكه مزرعته..

لا يبيعه بل يهديه..

لا أحد يرغب في تلك الهدية من الخضار والفواكه في عصر
ال(فاست فود) و(الديليفرى) و(لُفروزن ميل) والمطابخ الموصدة..

مستثمر مفلس فاشل مع رفيقته في العقار.. يحولان شققهم الصيفية
لاستقبال (ضياف ربي) العالقين في شوارع أبها ضيوفا معززين
مكرمين..

هو ليس رجل أعمال ولا تاجر..

مع رفيقته يجدان ضالتهما على الصفحات..

على الصفحات فقط..

أخبرها بسالفة القلم المبارك (قلم الوزير):

- قَسَمَ أَنِّي صَدَقْتُ حَالِي .. مَا سَبَلُ أَمَحِبِّ وَالْإِهْتِمَامِ؟؟ مَابِ الْعَرَبِ
فجأة اهتموا بالشعر؟؟

- آه d'accord داكور (طيب..طيب)

- أنت متأكد هذا القلم غالي بزاف؟!!

- إيوه غالي.. باهض الثمن.. قيمته أكثر من (0000000)!!

- الله يَكْتَرُ خَيْرَ الْوَزِيرِ..

- قُلْ لِي كَمْ هِيَ أَقْسَاطُ الْبَنْكِ الشَّهْرِيَّةِ؟؟؟

- قد عرفتها من زمان..

- طيب سأهتم بالقلم لا توصي حريص..

- انتبهى لا تضيعينه..

- قلت لك لا توصي حريص سأهتم به اهتماما خاصا..

- تحديق رفيقته في المرأة المقابلة في نظرات تأمر مع صورتها التي
تعكسها مرأتها..

- نُرَى فِيمَ نُفَكِّرُ؟!!

فاطِمَات

بدافع الحب فقط..

(حُبّ مع فرق التوقيت)..

بيننا دهر من فرق التوقيت..

هي ما زالت تحيا على فطرة الإنسان الأول..

تجعل من الليل لباسا لها ومن النهار معاشا..

كعادتي فجر هذا اليوم أطفأت جوال "الجلاكسي" الذكي الذي
أرهقني بذكائه وفصلت (النّت).

خلدت إلى النوم يرافقتي جوال الطوارئ (الموتورولا) جهاز خلوي
عمره بعمر نهضة أول جوال.. محترم غير مزعج بـ "أبشّين" لا
غير.. مكالمات ورسائل نصية ، به شريحة طوارئ بيبي وبين
رفيقي و(عيدة) والكبير من العائلة هناك في الديرة..

أحاول إغماض عينيّ الحامضتين من لسع أضواء الشاشة الزرقاء ،
حيث أعمل طويلا إلى الفجر (أونلاين)..

يدق (الموتورولا) بنغمة سيارة إسعاف..

لم أفزع لرنينه .. لقد تطمأنت منذ قليل على الأهل هناك وما زال
رفيقي على السطح يمتطي مناكب الألياف البصرية مع رفاق
القوافي.. سيخلدون لاحقا إلى النوم عند الشروق..
لم أفزع..

لم أتروّع لرنه شريحة الطوارئ.. إنها هي كالعادة.. (عيدة) كبيرة
العائلة..

- صباحشُ برك وريحان.. عساني ما أفزع عتسُ برهتُ علاشُ بالقال..
- لا والله عرفت أنك أنتِ وهذا وقتك..

- مَيدا أتطمَنَ علاشُ قد لي يومين ما كَلَمْتَسُ..

قسَمَ ما أنا ميد أفلِقشُ ذا الحزّة قد دريتُ أنشُ تدرّسين على امكبيوتر
مع امجانب إلى الفجر وتنامين إلى الظهر..

- تسلمين ما ثقصرين دائما تسبّقينني في السّؤال والواجب لك أنتِ
كبيرثنا وشيخة العائلة..

(عيدة) كبيرة العائلة تبادر دائما بالسؤال عن الكبير والصغير من
العائلة بدافع الحب فقط ، وللاطمئنان لا لهدف آخر أو طلب أمر ما
كما اعتدنا في زمننا هذا من معظم من هم حولنا..

صرنا نموت من التدمر والخذلان في زمن الصمت واللامبالاة ،
وحين يطالبنا أحد فلغرض ما.. لطلب ما ، فنحنني لهذا الزمن
مهزومين من الداخل..

(عيدة) نجمة العائلة..

أكبر نجمة ما زالت تشرق في دجا الغسق الذي عثم العلاقات بين
الأهل والبشر بصفة عامة.. ما زال في كل عائلة تضيء نجمة في
قائمة (عيدة وحليمة وفاطمة وحصه..) وكلما انطفأت نجمة من هذه
النجمات نضب معها زمن جميل ، فيبرد الجبل ، وتُسجّر الأودية ،
ويجفُّ نُسغُ الشجر ، لتمضي أزمنتهم.. تندثر خلفهنّ ويتلاشى كل
شيء جميل..

في حَضْرَةِ الخَالَةِ (حليمة)..

يَفِيءُ الزمان إلى رُشدِهِ..

يهزم الصمت الذي أرهق الحقول..

"طَبْخَةٌ" .. هي كيس فيه هَيْلٌ وخمسون ريالاً ولُفافة أخرى بها
"كِسْوَةٌ" قطعة قماش ألوانه زاهية وكيس حناء مع قارورة (دوا
حناً "ميسو") هدية من الخالة (حليمة) حين رحبت بي منذ أكثر ربع
قرن..

زُرْتها قبل أسبوع كعادتي..

لزيارتها مَوَاقِيت في الفلك لم تتغير نواميسها ، فهي بين الصباح
والشروق..

بعد صلاة الفجر تنطلق الصبِيَّة الثمانينية لِتُحدِّث الطبيعة..

هي بين مُدرجاتها الزراعية و بقرتها (صُبْحَة) وبعض الضأن
والمعز تُمارس معها مراسيم الحب والوفاء..

هي الجدة والأم والخالة والعمة المُطلقة ، هي أم لكل زمان ومكان.
كعادتي أقطع أشواطاً حتى أرتقي إلى عوالمها.. عوالم لا متناهية تمتد
إلى ما حول شطآنها الزراعية و غنمها والبئر وحصنها الحجري
الذي تأبى مغادرته إلى بيوت أبنائها المُرقّهة..

قروية (سروية) هي وُمّي (حليمة)..

حين أقرب منها وككل مرة منذ التقيتها أستغرق في ملامحها الأزديّة
التي خَطَّتها تجاعيد ترسم منحى جديداً لجمالها العربي الذي لم
يهجّن.. جمال لا ينضب مع سيرورة الزمن.. على جبينها قد نحتت
قطرات العرق ومضاتٍ كالثبر من تمازجها مع أول أشعة الشروق
ترسو على كتفها فتصنع توهجا مع منديلها الأصفر..

ينساب الوميض خجولا يقتبس نوره من خديها المتوردين من شدة
ارتفاع السكر في دمها وقد أفطرت فطورها الأزليّ : تمر وقهوة
عربية غير مبالية بويلات السكري..

كعادتها في ذلك الصبح أقبلت.. يمتطي يمينها دهر من جود العرب..
قدح من اللبن وكِسرة خبز من الدّخن وعلامات الاعتذار بادية على
قسماتها :

- قَسَمَ انْشُ نَشْمِيَّة ما قَطَعْتَ زيارتي مَنْ يَوْمَ بَدَيْتِي..

- لك الحق يا وُمّي حليمة أنت والدتنا كلنا وقدرك عالي..

تُقدم لي لبنا في قدح الطين مُعتذرة :

اعْذِرِينِي يَا ابْرَةَ لَجُودِ لَا عَادِي اَقْدِرِ امُوضِ اَمْحِقْنَةَ ، بِي وَهَنْ
وَرَعِشَةَ فِي يَدِي فَاخْذُوا لِي عِوَالِي (مَكِينَةَ) لَكِنْ لَيْسَ مَوْضِهَا طَعْمٌ
مِثْلَ حَقِّ اَمْحَجَمَةَ وَاَمِيدٌ..

تَعْتَذِرُ لِي مَرَاتٍ وَمَرَاتٍ عَنِ وَهْنِ يَدَيْهَا وَعَنِ اللَّبَنِ الَّذِي تَقْدِمُهُ لِي مِنْ
(مَوْضِ) الْمَكِينَةَ الْكَهْرِبَائِيَةَ الَّتِي اشْتَرَاهَا لَهَا اَبْنَاؤُهَا رَفَقًا بِهَا وَعَنِ
اللَّبَنِ الْمُتَغْيِرِ طَعْمَهُ..

- لَا بَاسَ.. لَا بَاسَ.. يَا خَالَةَ زَيْنِ لِأَنَّهُ مِنْ حَلِيبِ بَقْرَتِكَ..

تَغْيِبُ قَلِيلًا ، وَكِعَادَتِهَا تَأْتِي بِكَمِيَّةٍ مِنْ زَبْدَةِ بَقْرَتِهَا فِي حِكْرَةٍ وَفِي كُلِّ
مَرَّةٍ (كُوزٍ) جَدِيدٍ مِنَ الْقِرْعِ الْمَجْفَفِ..

- عَادِشٌ بَاقِي تَسْوِيْنٍ مِنْ دَهَانَةٍ (صُبْحَةَ) سَمْنٍ؟

- أَكِيدُ يَا خَالَةَ وَعَلَى طَرِيقَتِكَ وَطَرِيقَةَ جَدَّتِي.. أَحْرَقْ حَجْرَةَ الْمَرِّو..
أَسْوِي (اَمْحَصَمَةَ) وَبَاقِي اَحْتَفِظْ بِحَجْرِ الْمَرِّو وَ(الْكُوزِ) تَاعِكَ مِنْ
يَوْمِهَا وَأَحْفِظْ فِيهِ سَمْنِي..

- بِالْعَافِيَتَيْنِ..

بِالْعَافِيَتَيْنِ..

(دِهَانَةُ) تَهْدِينِي خَالَةَ (حَلِيمَةَ) كَلَّمَا زَرْتِهَا فِي قَرِيَّتِهَا السَّرْوِيَّةِ هِيَ
زَبْدَةُ مِنْ حَلِيبِ بَقْرَتِهَا (صُبْحَةَ) ، أَصْنَعُ سَمْنِي مِنْهَا عَلَى طَرِيقَةِ كُلِّ
الْجَدَاتِ :

زَبْدَةُ غَيْرِ مُهَذَّرَجَةٍ وَسَمْنٌ غَيْرِ مُهَجَّنٍ يَلْبَنُ الْبَقْرَ الْمَجْنُونَ
الْمَسْتُورِدِ..

بعد كل زيارة لها أخذ إلى مطبخي لأصنع سمنًا من زبدة (صُبْحَة) بقرّة ومي حليمة..

أستشعر ملامحها القروية مع تصاعد نفحات من أريج السمن.. أستشعر أنفاسها وصوتها المرتجف يخبرني ممّ يُصنَعُ منه الصَّبْحُ..

يُحدثني عن فقه سنابل البُرّ السُرّويّ تتمايل في رقصاتها وفاء لها كتمايل راقصة لا تقع في المُجون..

أستشعر من نفحات السمن وشوشتها تبوح لي كيف يصنع المطر واليُبْر في الطين للحياة عُصْبَة..

مع انصهار زبدة (ومي حليمة) أريج من نكهات الفطرة حين صنع الإنسان زاده لأول مرة..

زبدة وسمن من بقرتها ، عندها يولد زمن طفولة الرجال لينساب من حاوية السماء على الأرض وعلى عتبة بستان (خالة حصّة) يصنع أزمنة البشر يعدّ عمر السموات والأرض..

وعبر كينونة قروية سرّوية يخطّ له منحاه يرسي معالم وقتية يتخلى عن التجرد ليتجسد عند أزمنة من صنع خالة حليمة ويمضي مع خوار بقرتها صُبْحَة.. غنمها.. حنطة مدرجاتها ، وشجر التين والفاكهة السروية ليفيء هذا الزمن من جديد إلى رشده.. ينهل صفاءه من ملامح قروية أزديّة راسخة ، ومن يديها المرتعشتين يعود ويعود إلى رشده..

يعود الزمن إلى نقاوة الزاد الذي لم يُلَوِّث أبدا.. أبدا..

في سرّية تامّة (Top secret)

في سياق (سَلْمٌ واسْتَلْمٌ) يمضي مجرى الأمور..

تأمر ، فاتفاق فتنفيذ..

كل شيء كان يُبْنَى على نوااميس مُسَلِّمة (شيء مقابل شيء)..

اتفاق في قالب عقد مُبرَم مُحكم في سرية تامّة والعقد شريعة المتعاقدين..

اقترب موعد التبادل السري ، وذلك حين يُعلن مولده عند الآفاق الغربية.. تلقاه غيمة معطرة سماء سروات عسير..

قرب حلول السحر تتم كل الأمور في سرية تامة ، يُعزّز تلك السرية الضباب الذي يتناثر على أسطح البيوت في رسم الأيدي التي تمتد من حلق أسطحها ، يرسمها بزخرفات أسطورية.. أيادٍ تمتد في كتمان تام تارة ، وتارة أخرى بهمسات من الوشوشة..

كان هو هناك في مصلى البيت عاكفا على مصحفه وعيناه تتبع حركاتها المرببة بين المطبخ والسطح كلما نزلت من السطح تسللت إلى المطبخ تتأبط شيئاً تُخفيه بعناية..

تأخذ شيئاً آخر من المطبخ.. تَدسُّه تحت ثوبها وتعيد الكرة مرة أخرى مهرولة إلى السطح..

يسألها :

ما خطبك؟

- لا شيء ، أنبذ للحمام على السطح..

- وهل الحمام يسهر إلى آخر الليل؟

- أحضر لهم فطورهم فالحمام يستيقظ فجرًا..

- خبلة.. خبلة.. يُخَمَّن..

حركة مرببة عمرها أكثر من ربع قرن ، حين خابت الجارة الأطلسية في ضبط تخمير خبزة خمير الذرة التهامية..

اتفقت مع جاراتها الأربع على إعطائها "شتاية" وهي قطعة من عجينة خمير والتي يُخَمَّر بها دقيق الذرة لصنع خبزة خمير الذرة المنكهة بالحلبة وطبق الفتّة البلدي..

كان اتفاقا نسويا عادلا مبنيا على السرية التامة..كل جارة كانت لها نكهتها الخاصة في خبزة الخمير..تهاميات وسرويات لكل منهن طعم ونكهة وإضافات من حلبة وثوم وفلفل تضيفها على دقيق الذرة..

كل منهن تعطيها قطعة من عجینها وتبادلهن بأكلات من أطباقها حسب الإتفاق..طبق الطاجين لَحْلُو..طبق السّفة للسحور..صحن قلب اللوز..وخبز المَطْلُوع والشبّاكِيّة..

كان الجارات يتبادلن الطيبات من حلوق الأسطح طيلة شهر رمضان ومعها كثير من الحب والوُدِّ والسرية التامة..

تُخَلد هي إلى مطبخها تَخَلط عجينة "اشنّايّة" مع دقيق الذرة ليتخمر..تخبزه في الغد قبل الإفطار يفوح السطح برائحة الخمير.. مزيج من خبزة خميرٍ (محايل عسير) و(رجال ألمع) و(جازان) (والسراة) مخبوز بأيدٍ عسيرية وأطلسية.. رائحة تزُف الكثير من الحب والوصال بين الجارات الأربع..تتسلل إلى غرفته تلك الرائحة الطيبة..يطل عليها ويدها تُخرج قرص الخمير من الثُّور..ينتشي لتلك الرائحة الزكية التي تغمر أرجاء السطح.

- قَسَمَ أَشْ نَجَحَتْ فِي صِنْعِ الْخَمِيرِ..

- أَكِيدُ.. أَكِيدُ..

يمتد صوت الخالة التهامية من السطح الملاصق في تأمر نسوي..

- قَسَمَ أَنْ بِنْتَ أَبُوها نَشْمِيّة قَدْ هِي تَخْبِزُ مِثْلَنَا..

هكذا استمر تأمر الجارات في كتمان سر خمير الأطلسية الناجح إلى يومنا هذا بنفس السرية والزوج منتشٍ مغتبط بالحرمة الأطلسية التي تُثَقن صنع خبزة خمير الذرة..

آخر كسرة خمير..

(14 أغسطس..في مثل هذا اليوم رحلت)..

أنهكها قرن من الزمن عبّر جسدها..وعند أعقاب صيف سرويّ
استسلمت إلى أسر الفراش الذي كان يجتزأ ما بقي من جلد يكسو
عظامها المتآكلة..

مائة سنة أثقلت لسانها التهامي الذي كان يتشبث بأخر معالم الأمومة
:

- بقي كسرة خمير لأمولد..

كانت آخر كلمات مرتعشةٍ نطق بها لسانها توصي بها زوجة وحيدها
الذي غاب لسُويعات..كسرة من خبزة الخمير..

ظُهر ذلك اليوم زارثها رفيقةٌ دربها..قدمت لها قرصا من خبز
الخمير الذي كانت تحبه كثيرا..

لم يكن لسانها الذي نخرته القروح قادرا على تذوق الخبز..فَنت لها
زوجة ابنها لقيمات في حليب دافئ ، لكنها لم تستسغه إلا بعد ما
اطمأنت أن (حُرمة امولد) أبقت منه كسرة لوحيدها الغائب عاملة
بوصيتها..أشارت لها بسبابتها بوضعها تحت المخدة التي كانت
تغوص فيها نحو سكرات الموت..

كانت زوجة ابنها تضع لقيماتٍ بسيطةٍ في فمها الملتهب بالقروح
وكانت الأم تحاول لمس كسرة الخمير كلما أفاقت للحیظات من
سكرات الموت حتى تطمئن أن كسرة الخمير لا تزال تحت رأسها
تترقب عودة (امولد).

بعد سويعات مضت الأم نحو غياهب الغيبوبة ، وفي غيبوبتها كانت
تضغط على يد زوجة وحيدها التي كانت تتشبث بها وهي ترحل إلى
ملكوت البرزخ.

كانت الحياة تغادر جسدها الضعيف ، لكن أمومتها كانت تتشبث به
بقوة..تُتمم..تتلفظ بحروف مرتجفة بالشهادة ، وتُتم ذلك بوصيتها
عن كسرة الخمير لامولد..

تربّع ملكوت الغيبوبة والموت في حجرتها ومضت.

عاد (اموآد) في الصباح.. جقت خبزة الخمير والأم تعرُج بحلمها
نحو السماوات..كان حلما مشروعا لأمومة عمرها تخطى عتبة
القرن..آخر كسرة خمير (لاموآد)..

بعد الجنازة خَلَدَتْ زوجة ابنها إلى النوم على ذات السرير..على ذات
المخدّة التي كانت لا تزال تكنز رسوخ آية الأمومة..

استخرجت كسرة الخمير القاسية..

بكت كثيرا كثيرا..وبكيت كثيرا كثيرا اليوم في ذكرى وفاتها
استحضرت نص الشاعر محمد زايد الألمعي الذي قاله حين علم
بآخر كسرة للخمير..

استحضرت هذا النص بكل أوجاعه من جديد (تركت (لاموآد)..

كانت (فاطمة) قبيل ساعات احتضارها ، وأعطوها نوعا من خبز
الخمير الذي تحبه ، فكسرت نصف الرغيف ودستته تحت
فراشها..سألتهما الزوجة لم فعلت فأجابتها : (خليها لاموآد إلى راح) ،
فكانت شاعرية محمد لتلك اللحظة بالمرصاد :

- تركت (لاموآد)

تركت (لاموآد)

كسرة من رغيف الدرة

وغفت فاطمة

وَهُوَ لَمَّا يَعُدُّ..!

.....

حِينَ جَاءَ يُفْتِشُ عَنْ صَوْتِهَا،

وَالسَّمَاءَ عَلَى صَدْرِهِ جَائِمَةً

وَعَلَى غَيْرِ عَادَتِهَا،

لَمْ يَجِدْهَا،

فَقَدْ نَسِيَتْ طِفْلَهَا فِي (قِعَادَتِهَا)

وَمَضَتْ فَاطِمَةٌ..

.....

كَانَ يَبْكِي وَحِيدًا،

وَكَانَتْ عَلَى نَجْمَةٍ وَحْدَهَا نَائِمَةً،

وَكَانَ الرَّغِيفُ يَعْضُ حَمُوزَتَهُ الْقَاتِمَةَ!

هَنَّاكَ أَوْجَاعَ تَرَسِخِ رَسُوخِ الْأُمُومَةِ فِي قَلْبِ (أُمَّ أُمُودِ) ، وَهَنَّاكَ

أَحْزَانَ تَوْلَادٍ كَبِيرَةٍ وَتَبْقَى كَبِيرَةً عِنْدَ رَحِيلِ الْوَالِدِينَ..

خَالَةَ عِيدَةٍ وَ(التَّائِكُونْدُو)..

-1-

كأن الجبل المقابل يمور من بين يديّ عشية هذا المساء تُعاقره رياح
أغسطس الباردة فيبدو لي كأنه يميمس خلف الغيمة الكثيفة تُخيم على
السطح.. تُشاكس نكهة قهوتي.. تنتثرها مع الرياح.. تُلثم خرف فنجاني
قطرات مطر ضخمة ترسم على سطح قهوتي حلقات خرافية وكأنها
دوائر حقول رسمتها مخلوقات فضائية تُثلجها بصقيع صيف
السُّروات.. أستسلم للبرد قليلا تحت المظلة العملاقة لعل المطر يكف
ركضه على الطاولة لأكمل ما تبقى من قهوة في فنجاني..

يستلني من تأملاتي رنين جوالي كعادته حين يستيقظ نهار المدينة
عند هيبة الغروب المستتر خلف السحاب ، وتستفيق حينها
صديقتي.. أردّ.. إنها صديقتي زهرة.. تبادل تحايا.. تدابير ومواعيد
لسمرة الليلة.. يتزامن معها شجار.. صيحات وبكاء.. تُلقي زهرة
بجوالها.. أصغي إلى قرعته على الأرض لكنه لم ينطفئ.. أستحث
السمع.. أحاول فهم ما يدور خلف "اسبيكر" .. إنه صوت الطفلة (لينا)
بنت صديقتي في شجار حاد مع والدها.. تُصرّ (لينا) على ممارسة
رياضة "التايكوندو" .. يرفض والدها بشدة..

- قَسَمَ لَأَسَجِّلَ فِي "التايكوندو"

- لِمَ أَنْتِ وَلِد؟!.. ما عندي بنات تُصارع وتضارب في الشارع..

تَحْتَجُّ الطفلة بقوة.. تُعاند.. تُصمّم..

يستمر الشجار وأنا عالقة على الجوال أصغي إلى (زهرة) تحاول
الصلح بين الأب وطفلة.. صوت وقور رنان يلتحق بأصوات الشجار
المُتداخلة :

ما بكم؟ ما هذي السريّة؟ لِمَ تصيحُ على البنت مخاصما ولده..

إنه الجدّ الحكيم الذي يُفِرُّ في دلال البنات من حفيداته..

يأخذ الطفلة (لينا) في حضنه يسألها :

لِمَ اَمْخَصْتِ مع (أبوش)؟

أنتِ تدرين أن طاعة الوالدين من طاعة الله؟

- قدّ دَرَيْتِ يا جد لكن بابا ما يبغى يسجّلني في "التايكوندو" ..

- وما هُوَ التايكوندو ؟

تشرح لينا لجدّها..

- ولمَ أنتِ مِيدُ تَتَعَلَّمِينَ كيف تَتَضَارِبِينَ في امْشَارِعِ ؟

- أنا تحيفة وأصير صبية وأسوق سيارة والشباب يتحرشون بالبنات في الخط وفي المواقف وامسوق..أنا أبغى أعرف كيف أدافع عن نفسي..

أقنعت (لينا) جدّها وافتخرَ بها..

- تَمْ يا نَشْمِيَّةِ يا اِبْرَةَ أبوها وجدّها.. على نَخْرَتِي تِيه أنا الصُبْحُ اِبْرَه
أسجّلش، وإذا أحد ضايّقش في امسوق ورّيه شُغْلُه واضربيه إلى أن
يَزْكِي وَيَأْتِي رَجُلُنْ وما عاد يقلّ أدبه مع بنات الناس..

افتخر الجد بحفيدته ، هذه الطفلة المتيقنة أنّ المرأة لا تحتاج إلى كفّ
رجلٍ يدافع عنها وقت الحاجة ، وقرر تسجيلها في (التايكوندو)..

في حين بقي والدها يعترض ويردد:

- قَسَمَ أنّ الحريم إنْفَجَرُوا..انفجروا في هذا الزمان ولا عاد أحد قادر
يوقفهم..

ردّ الجد الحكيم :

- الحرّيم لم ينفجرن ، بل عدن إلى حزم وعزم جداتهن وأمهاتهن
واثقاتٍ من شخصياتهن في الجبل والوادي والهجر ، وراح يقصُّ
على حفيدته (لينا) قصة جدتها (عيدة) مع تاكوندو الجبل..

خاله عيدة و(التاكوندو)

- 2 -

اقتنع الجد الحكيم بمطلب (لينا) ، وقرر تسجيلها في (التايكوندو) ،
بينما راح والذها يتمّم:

(انفجر النسوة ما عاد أحد يُوقفهن..)..

يقف الجد الحكيم صرّحا في باحة الحصن وبصوته الجهورّي يُعلن
كلامه شارة...

- لم ينفجر النسوة.. بناتنا عُذُن.. عُذُن إلى شخصيّتهن..

يستدعي(لينا) وكل حفيداته.. يلتف الطفلات حوله في باحة الحصن
حيث يرسو منبره وتدا يُشيد للأحفاد من أزمنة غابرة دروعا
تحصّنهم من التهجين كلما انتشت على لسانه روايا الأسلاف يرسخها
على جباههم حين يعبرون حصنه الحجري.. يترددون على عتباته..
يحیی مقدمهم مطلا من مناصي الجبل الذي يكنز صهارة الذاكرة..

تلتف حول الجد الحكيم الحفيدات الصغيرات.. يلفهن ببرّدته التي
تسعين كلهن على اختلاف أعمارهن..

تسعين ظلال دفاء أبوة مطلقة تنتثر أصالة الأرض التهامية وتماسك
العائلة والعشيرة..

تُمشط أنامل الحفيدات لحيته كالعادة.. الأخريات منهن يلهون بمسبحته
الخشبية.. مسبحة تطلق رائحة المسك متمازجة برائحة الخوص الذي
نسج منه سجادة الصلاة.. سجادة لا تغادر وُجْهتها نحو القبلة هي معلم
بيت الجد الحكيم في الحصن الحجري.. ترسي منبتا طيبا تتجذر فيه
بصمة أولى خطى الحفيدات تكتبها صبغة الطين الذي شكّل تربة
الوادي والمرعى في القرية التهامية..

وحين لفظه البسمة التي يبدأ بها سرده لسيرة الأسلاف ينثر نكهة
التاريخ حقيقا يتخلل بنان الطفلات حين تتبخر موائعه ليرسخ إلى
الأبد عطر الصبايا التهاميات.. يرسخ هذا العطر من رائحة التربة
الذي لا يبدها هول السيل..

يروى الجد الحكيم حكاية اللبوة التهامية..

خالة (عيدة) لبوة الجبل مع (تاكوندو) جبلها وزمنها..

خالة (عِيدَة) و(التَائِكُونْدُو)

الفتى (كِرْشَان) - 3-

يسترسل الجد الحكيم في الحديث :

لم ينفجر النسوة ولكنهن عُدن.

تغوص نظراته وكأنها تخترق صدر الجبل.. يُخبر حفيداته :

لكل جبل أمّ ولكل أمّ جبل..

ومّي عيدة..خالّة عيدة.. هي أمّ هذا الجبل..

عند الظهرية تنتصب خالة عيدة عند حافة الشطّ بعد ما انتهت من ترويض الزرع على كل المدرجات التي تنتظرها عند نجمة السحر..

بعد الظهر تترقب عودة صغيرها من مدرسة (البتيلة) لئُسلمه عنوان رجولته المبكرة : عِمامة وخنجرا والقطيع..

يعود (مرّعي) من المدرسة مع أترابه والحلم يتقدمهم ، وقد تخلى قليلا عن رجولته المبكرة..يلهو مع رفاقه من أبناء القرية..

يعودون إلى طفولتهم ينثرونها مع رذاذ المطر.. يملؤون قبعاتهم من ماء بئر الغدير ويشاكسون حمار العم عليّ قبل أن يغزوهم سرب النحل على جنبات الوادي فيتفرقوا كل واحد نحو زرع أو حصاد أورعي.. نحو أبدية رجولة تُوجوا بها عند ميلادهم تكتب ميثاقهم الأزلي مع الزرع والمرّعي..

الخالة (عيدة) ما زالت هناك إلى جوار عرج السدر تترقب عودة (مرّعي)..إنها والقرويات يشبهن كل الشجر المعمر في الوادي..عمرهن من عمر عروج السدر التي اكتنزت بين حلقات جذعها الغليظ..اكتنزت ذاكرة عبورهن وتفاصيل ملامحهن

ومروؤتهن.. يُفصح بها النحل حين يلثم رحيق الزهر المبشر بثمار
الجنى..

الولد مرعى نحو الحصن الحجري متخليا شيئا فشيئا عن طفولته
ممتطيا من جديد رجولته ليلاقي والدته واثق الخطى نحو القطيع
والكلأ ، ولكن الفتى (كرشان) كان له بالمرصاد كعادته مُتخفيا خلف
شجرة (امبرايه) الجميز العملاقة ليسطو كل يوم على الوجبة
المدرسية التي يحتفظ بها مرعى لأخته الصغيرة (حصّة) التي تنتظر
عودته بلهفة لطعم السكاكر كما يفعل كل أطفال القرية ، لكن الفتى
(كرشان) النهم يتربص بهم كل ظهيرة ليختار ضحيته.. يخرج
(كرشان) فجأة من خلف الشجرة..

يُفزع مرعى..

يتمسك مرعى بمخلاته.. يتصارع مع (كرشان).. يرمجه بالحجارة..
ينقضّ عليه كرشان البدين الفظ..

يقاوم مرعى النحيف كتلة اللحم والشحم والبطن الضخم المتحركة ،
لكن دون جدوى.

يسطو (كرشان) على مخلاته.. يستولي على الوجبة المدرسية ، لكن
هيهات..

تنقضّ عليه (خاله عيدة) من أعلى الشطّ..

تضربه ضربا مبرحا.. تعضّه.. تسحبه من ثوبه.. تجره على الحصى
في الوادي.. تعلقه إلى جذع السدر الغليظ.. يلتحق بها الصبايا
القرويات والخالات يضربنه.. يحلقن شعره.. يلطنن وجهه بالرؤث..

يصيح (كرشان) البدين السمين النهم.. يتعهد لهن أنه لن يفعل ذلك مع
الأطفال الصغار أبدا أبدا..

يمسح الجدّ الحكيم بلحيته..

يصلي ويسلم..

عند نهاية حديثه تهتف الحفيدات :

تعيش خالة عيدة..

تعيش خالة عيدة..

يحاورهن الجد الحنون :

هذه خالة عيدة ، وهذا (تايكوندو) جبلها و (تايكوندو) لبوات الجبل من
جداتكن ، لم يكن يحتجن إلى من يحرسهن ويدافع عنهن.. كن لبوات
يحمين أنفسهن حتى الاستماتة..

أمي وسيبوية..

(رَاجِلٌ بُحَالٌ مُصَنَّتِينَ.. رَاجِلٌ مُصَلٌّ.. مَا يَتَكَيَّفُشُ وَيَقْرَأُ الْعَرَبِيَّةَ..)

مواصفات قاصمة قطعية ، فمن يتصف بها يزوج فوراً و باجماع ..

(بُحَالٌ مُصَنَّتِينَ) وهي صفات المُنصت للقرآن.. الصلاة.. (ما
يَتَكَيَّفُشُ) لا يدخن.. في حين الصفة العليا التي بها يزوج الرجل والتي
تضيف له ميزة التفوق عن غيره من الخطّاب وهي "يقرا
العربية.."

كل الأعراف على اتساع القطر الجزائري كانت تعند بمن "يقرا
العربية" ، وتربط هذه الميزة بالتدوين والخلق الرفيع..

والدتي كانت مثل كل الجزائريين من جيلها تُعَدُّ بذلك ، وحين تمح أحدهم قالت .. " يقرأ العربية" ..

عاشت تفتخر بالقليل من السور التي حفظتها في المَدْرَسَة القرآنية، حيث كان الآباء يأخذون أبناءهم إلى "مسيّد العرّبية" أو "الجامع" لحفظ ما تيسر من القرآن قبل التعليم الإلزامي في المدرسة الفرنسية إبان الاحتلال..

ظلت والدتي تعتر بالقليل من السور التي حفظتها في "المسيّد" وعزّزتها بعد ذلك ببعض السور من جزء (عمّ وتبارك وسبح) إثر تحفيظ الكبار..

بعد تعزيز حفظها بتلك السور شعرت أنها بارعة في اللغة العربية ، وبكل ثقة تنتقي كلمات من رصيدها الواسع من اللغة الفرنسية التي تتقنها جيدا..

مفردات فرنسية قد "تَجَزَّأَتْ" وتداخلت مع اللهجة العاصمية ، فراحت تضيف لها ألفا ولأما تُعرّفها ، وتاء مربوطة في نهايتها ، وبهذا صارت واثقة أنها تفقّحت في اللغة العربية..

مع ظهور قناة "Mbc" اتسع رصيدها اللغوي حين أضافت إليه كلمات من اللهجة المصرية واللهجة السورية من خلال المسلسلات التي كانت تتابعها بشغف لإتقان العربية.

عاشت والدتي في (المملكة) ما يقارب العقدين من الزمن.. حصولها على الإقامة الدائمة وُلد لديها عزيمة لتعزيز رصيدها في العربية المتشكل من لهجة عاصمية.. كلمات فرنسية "مُجَزَّأَة" ..كلمات من اللهجة المصرية والسورية ، فراحت تعززها بكلمات تهامية من لغة

"حَمِيرُ القَدِيمَة" اکتسبتھا من عجايز التھائم والسراة من الأهل
والجيران..

تحدث إلى صبايا وعجايز "الأزد" واثقة من عربيتها المتحوّرة من
الحروف اللاتينية، كانت واثقة أن الكل يفهم كلامها ، وحين تتعثر
تَقَلِّبُ على فرنسية بلكنة "ديغول" فكان الكل يستمتع بذلك.

ظلت تحب العربية ، وتحنُّ إلى ذلك الزمن الذي كان تعلم العربية
للجزائريين محظورا ، فاعتبروا حفظ القرآن شفاهايا دون معرفة
بالقراءة والكتابة تحديًا ومقاومة..

بقيتُ والدتي بهذه الأنفة والكبرياء والاعتزاز بلغتها العربية إلى أن
جاء يوم (ذي جوازات أبها) في السعودية ، وحادثة (مَسَقَطُ الرَّاسِ)..
حلَّ عصر الرقمنة وفُعِلتْ تقنية البصمة.

أخذنا والدتي إلى جوازات أبها، وكعادة رفاقي في باحة كل إدارة
يُحدِثُ ربكة..

بقي في الخارج مع مواكب التحايا والسلام..

دخلتُ مع والدتي التي انبهرت كعادتها بخُلُق الشباب في الجوازات :

- شِفْتِ..شفتِ..الله يرحم من قَرًا ووَورَى..

الله يبارك فيهم..

- تفضلي يا والدة..حياك الله..ابصمي هنا..

- يعطيك الصحة يا وليدي..

- شفتِ اشْ حالْ مُربين وحرْمين عِينيهم مايرَفعوهُمْش في وَجْه
لُمراه..

خاطبني أحد الإداريين للتأكد من البيانات :

- يا أخت فين مسقط رأس الوالدة؟

ثارت والدتي وحدثت فيّ :

- أه خسارة عليّ هذا وأنا أشكر فيهم من الصبح !!!

- علاش واش قال لك ؟

- سبني قال لي سقط راسك.. راسك ساقط!!!

أدرك الشباب أن هناك مشكلا :

- ما بها الوالدة يا أختي ؟ عسى خير؟

- خير.. خير.. هناك سوء تفاهم..

والدتي مصممة ثائرة :

راهو يدعي عليّ ويعيرني و يقول راسك ساقط.. سقط الله راسك..

- أنقذت الموقف مع الشباب وشرحت لهم جهلها لهذا المصطلح..

أخذتها إلى الخارج والرفيق باق في تحايا جاعلا فناء الجوازات
ساحة شعبية بطروقه وأهازيجه التهامية ، ولم يكتشف شيئا مما كان
يدور داخل الإدارة من صراع والتباس في المصطلحات..

حاولت أن أقنعها بدلالة هذا المصطلح الإداري فلم تقتنع أبدا ونبذته
رغم عشقها للغتها العربية ، وقررت أن لن تضيفه إلى حصيلتها
اللغوية ، وظلت تقنعني أن ميلاد الإنسان حادث إيجابي ، والميلاد
آية من آيات الله وإعجازه، وخاصيته وقدم المولود إلى الحياة لا
يتضمن دلالة السقوط السلبية ، فمسقط الراس يعني (سقوط) ، يعني

"واحد طاح في حفرة وثكسر راسو" ، والميلاد هو فرح وإعمار
للأرض بحياة جديدة.. لم تضاف أبدا والدتي هذا المصطلح إلى
رصيدها اللغوي في عربيتها التي شكلتها من لهجات وكلمات أجنبية
متحورة من الجذر اللاتيني.

ذاكرة العطور..

ينسكب الزمن دون نضوب..

نتوهم أنه يُطهرنا من كل ذلك الشجن والحداد المتراكم في أعماقنا..

يمضي..

ينساب..

لكنه لا يجرف معه كل ذلك..

حين تحلّ المواسم تُحلق الذكرى..

يحلّ الحنين ، فنذكر أن ذاك الحبل السري لا يزال يشدنا إلى أحببتنا
في عالم البرزخ..

نكاد نشم رائحة طيب أمّ .. أب..

طيب ترسخ في ذاكرتنا القبلية قبل ميلادنا في غور الرحم في ذلك
القرار المكنون..

كل منا يكنز طيب أمه الذي يتناسخ بصبغية جلدها تتطبع بها
أشياؤها..حجرتها..فاذا رحلت فلن ترحل أبدا..

حين أنعم عليّ الله أن أكون أمّا لطفلتين أصباهما تعدت الثمانية عقود
كان عليّ أن أروضهما لأدلهما بحب وبعض الدهاء..

لكل منهما طيبها الذي تتمسك به..(وَمَيّ فاطمة) طيبها الصارخ
(rêve d'or ريف دور) ، وطيب والدتي (soir de Paris سوار
دو باري)..

يمتزج طيب (وَمَيّ فاطمة) ب(التعريية) ورائحة الحناء وأطيباب
(تهامة) التي لا تغادرها : سكب..ريحان..شوراء، ويرك..

يتمازج العطر مع كل هذا ومع صبغة جلدها الحنطيّ فيفوح برائحة خاصة بها انطبعت بها حجرتها وأشياؤها ، فيغمرنني ذلك الأريج طفولةً في حاجة ماسة إلى لمسة من كفها ودعوة ترفعها إلى السماء..

طيب والدتي يتمازج مع مسك و عنبر مدينة (غرّداية) ليصنع لجلدها رونقا من الأنفاس الفواحة فتتشبث بي طفولتي من جديد..

كل منهما كانت تُصرُّ على طيبها.. من أين لي طيبهما في زمن التقليد؟!!

أتسلل من البيت إلى سوق (الثلاثاء) الشعبيّ في (أبها).. أدخل العطارة..

أتفاوض مع البائع الهندي الذي أدعه يمارس عليّ كل فنون التجارة..

- هذا ماما - أسلي.. أسلي.. فرنسي..

فرنسي..

- طيّب.. طيّب.. طيّب..

بكم؟

- ب ٢٥ ريال عشان أنت ماما ٢٠ ريال عشان أنت سوا.. سوا.. نفر

ما في فلوس..

- طيب طيب.. أعطيني

أتمتم: إيوه يالسيّ صديق سوا سوا نفر ..يعني عطر فرنسي في باريس سعره ١١٥ يورو وأنت قاعد تستورده وتبيعه ب ٢٠ ريال!!

يعني تتصدق!!

يُقلِّبُ الهندي عينيه بكل اتجاه مكرًا مصدِّقًا أنني شربت المقلب في
التقليد الصيني درجة عاشره..

أعود إلى البيت..

- يا غديتي يا ولدي؟ ألهيتي علانا..

- وين رحت بيطيتي؟

أعطي كل واحد عطرها.. أو همها أن إحدى صديقاتي عادت به من
سفرها من فرنسا..

تدرك كل منهما أن رائحته ليست تلك الرائحة التي اعتادت عليها في
زمن العطور الأصلية.. أو همهما من جديد أن حاسة الشم قلت لديهما
بسبب أرذل العمر وبسبب نقص الأكسجين في (أبها)..

تصدقانني بكل براءة.. ترفعان أيديهما إلى السماء بالدعوات..

رحلتا..

ما زلت أشتري عطريهما المقلدين من الهندي في سوق الثلاثاء ، وما
زال البائع الهندي ينصب عليّ وأنا راضية..

أسلي.. أسلي.. فرنسي فرنسي..

أشتاق إليهما في كل موسم وفي كل عيد ..

أطلق شيئًا من عطريهما..

أكتنز ذكرى عطريهما التي تملأني طفولة.. أعيش نشوة الطفلة
المرتمية في حضن أمها..

أُمُومَة عَلٰى حَافَة الرِّصِيفِ..

تر اودني فطرة المشي تحت أشعة الشمس..

شغفٌ واشتياقٌ لِلْفَحِّ الحَرِّ الذي يغيب عن (أبها) في موسم الصيف..

أترقب إطلالة الشمس تعاقر الضباب الكثيف الذي يغطي سماء
(أبها)..

أخيرا ينفشع السديم شيئا ما..

يكف المطر عن مراوغة الأرصفة ، وتطل أشعة خجولة تعبر الغيوم
الحُبلى تُعدني ربما بساعة من المشي..

أتأبط "إمبريلا" و "جاكيت" تحسبا للبرد الشديد المفاجئ الذي يداهم
عادة المدينة في شهري جويليه وأغسطس وموسم الصيف الممطر
في (أبها) المتسلقة على ارتفاع ما يقارب ٣٠٠٠ م .

العصر..ها أنا أعددت ما استطعت لمقاومة برد الصيف..

أستبق المغرب قبل استيقاظ أهل المدينة وزحمتها..أخوض مناكب
الحي نحو وسط البلد، لكن المطر كان لي بالمرصاد من جديد..لا
يمكنني مواصلة المشي، لأن مظهر سيدة تمشي تحت المطر تحمل
(أمبرلا) في(أبها) شاذ ويمكن أن يُحدث ربكة في حركة المرور..

أقف على حافة الرصيف تحت (بلكونة) عمارة الجيران..أطلب
"تاكسي..أوبر" والذي حتما سيتأخر في هذا الموسم الاصطيافي..

عند الرصيف المقابل منظر عائلة بأكملها يشدني :

أمّ وصغارها ، وربما الأب الذي يقف مُتحوّظا نوعا ما عند الركن..
الكل يلتفتّ حول حاوية المهملات التي تزخر بعلب المطاعم المليئة
بكل النعم..

أنتقل بالقرب من الحاوية :

بروست..دجاج كُنْتَاكي..شيش طاووق..بتزا هُوت..علب حلويات
(إياد) وغيرها..(بقلاوة..كنافة) وكل الطيبات..أستغرق في مسرح
الصغار ولهُوهم واحتفالهم يقتنون من الحاوية ما يطيب لهم والأم
تداعبهم..الأب الغليظ القَطُّ كان يحاول الاقتراب من الحاوية، لكن
الأم كانت تهزره..ربما الزوجان في حالة شقاق وخصام..

في الزاوية عند منبت جدار المبنى لفت انتباهي أحد صغارها ينزوي
وحده..

كانت تَنْتَقِي له لقيّمت طريّة كأنها تمضغها قليلا ثم تعطيه، لكنه لا
يأكل..قلت في نفسي ربما هو عطشان لأنه كان يُحدّق فيّ ويصدر
صوتا خافتا..سأسقيه..

دخلت البقالة في الجوار..أخذت قارورة ماء كبيرة وكاسة بلاستيك
وصببت له الماء..كان جميلا جدا ولطيفا ودودا..

حاولت حملة، لكن كلما اقتربت منه هرب ، وإذا ابتعدت عاد إلى
الكاسة وشرب..

كان فعلا عطشان..

وقفت مستمتعة بهذا المشهد..لكن أمه كانت تراقبني وتتوعدني..

أعلّنت عليّ الهجوم ، وراحت تُكشّر عن أنيابها وتبرز مخالبتها..

خفت منها ربما هي مصابة بالكلب..ابتعدت عن صغيرها ، لكنها
راحت تتبعني وتحاول خدشي وتصيح صياح المحارب..أسرعت في
خطواتي ، لكنها كانت مصممة على معاقبتي ، ربما كانت تخمّن أنني
أرغب في إيذاء صغيرها أو خطفه..

وصل (التاكسي)..

ركبت السيارة ، وطلبت من الكابتن الانتظار قليلا وهي تتبطني
وتقف راصدةً عند السيارة وتخدش الباب..

وحين يئستُ من معاقبتي هاجمت زوجها وصفعته بلطمات وأشهرتُ
مخالبتها في وجهه فهرب ، وراحتُ تتابعه لتعاقبه نيابة عني..

مسكينٌ (القطوس) الكبير.. الزوج المُعْتَف.. دفع الثمن مكاني..

قطّة عابرة تحمي صغارها على الرصيف..

أمومة على حاقة الرصيف تدافع بشراسة عن صغارها.. انطلق
التاكسي.. تذكرت ذلك اليوم الذي توقيت فيه والدتي..

تذكرت يومها أنّ طفولتي غادرثني إلى الأبد ، ولا أمّ لي بعد ذلك
اليوم تستميت من أجلي..

بكيّت من جديد رحيلها..

بكيّت..

بكيّت بكاء تلك الطفلة التي فقدت أمها إلى الأبد..

سيّدة من زمن الأمومة..

ما زالت الذاكرة الجماعية في القرية تذكر ذلك المشهد المهيّب ، حين
تعالى صوتها مُزامنا هدير الرعد في أودية تهامة..

سيدة حامل في الشهر السابع - لا تحسن السباحة - تَزُجُ بجسدها في
غياهب خزان المياه.

كان الطفل ذو السننتين مغمورا بمياه الخزان التي علت قامته
الصغيرة..

يصيح تارة ، ويختنق تارة أخرى..

كانت صيحاته تتعالى نحو حتمية الهلاك..

سمعت هلع طفلها..

ألقت بأقراص الخبز أسفل التنور حيث كانت تصنع خبز العشاء في
غرفة (الموافي) المجاورة للخزان..

هوى العجين في التنور.. يحترق ويحترق معه قلبها وهي تسارع
لتنقذ طفلها..

تتعثر في حجارة الحديقة..

تُلقي بنفسها في الخزان..

هوت (عيدة) في الخزان.. انكسرت ساقها.. حملت طفلها الذي غطته
المياه على كتفها بيدها اليمنى ممسكة بيدها اليسرى بطنها خوفا
على جنينها غير مبالية بالآلام ساقها المنكسرة التي كانت ترفعها شيئا
ما وتستند على ساق واحدة فيختل توازنها مع الطفل الرضيع
والجنين الذي يُثقل بطنها..

أقبلت نسوة القرية لإسعافها..

نجا الطفل الصغير (علي) من الغرق وأخرجت عيدة من الخزان ،
ونجا جنينها..

بقيتُ ٣ شهور تعاني من ويلات الجبس إلى أن طابت ساقها...
(علي) صار شاباً.. تخرّج وتوظف في إحدى المدن شماليّ
السعودية..

بلغ الباءة وطرق باب المودة والرحمة..

زوجته وأهلها من المدينة التي توظف فيها..

تحدّد موعد الزواج وهمّ الجنوبيون من العائلة بإقامة مراسيم الزواج
في الشمال...

جنوبيّون عسيريّون تهاميّون نحو الشمال ، ومعهم زوجة روتينية
(خالّة للعريس)..

العائلة ومعها الزوجة الروتينية (الخالّة) من الطبقة الكادحة في إعادة
جدولة لديونهم نحو رحلة الحب.. (أبها-جدة-تبوك..)
وفدٌ يمتطي مقاعد درجة الضيافة..

أما الأم (عيدة) فقد صمم (عليّ) على أن يأخذ لها تذكرة (درجة أولى)
رغم رفضها واعتراضها الشديد..

أمّ من زمن الأمومة زاهدة في كل أمورها تود لهذا الابن البار المقبل
على فتح البيت الزوجي التوفير واليسر ، لكنّ (علي) مصمم على
راحة والدته التي أنقلها دهر من النّفاني لأمومة رعت وسهرت على
تربية أطفالها التسعة..

لحظة الركوب امتطت العائلة الجنوبية سهوة درجة الضيافة ،
وأجلست الأم في الدرجة الأولى.. بقيت تعترض وتحتجّ بلهجتها

التهامية الأصيلة ، وتحاول في المضيعة التي تحاور بالإنجليزية أن
تقنعها لتتقلها مع باقي العائلة..

استسلمت الأم (عيدة) إلى قدر الرفاهية التي توجّها بها الإبن البار
(علي)..

انطلقت الرحلة نحو وجهتها..

كانت (عيدة) تلتفت مرارا نحو قسم الضيافة، وزاد حرجها حين
أسدلت الستارة التي تفصل القسمين..

تشعر بالخجل ولا تستسيغ الوجبة المرقّعة التي تُعطى لها ، في حين
لا ينعم البقية من العائلة بذلك في درجة الضيافة..

حطّت الطائرة في مطار (جدة)..دخلت..

اتجهت العائلة بأكملها إلى قسم المواصلة نحو مدينة (تبوك) باتجاه
مربع (الترانزيت)..جلست العائلة لتنتظر ٤ ساعات موعد رحلة
جدة- تبوك..

جلست (عيدة) على الكرسي من حولها عائلتها والخالة الروتينة:

- يالله تفضلوا باسم الله بَقِيْتُ لكم من امزاد دَسِيَّتِ امعشا في شنطتي
ما صَخِيَّتَ آكله وحدي وما اهْبَوا لكم إلا (سندوشة تُونا) وعصير..

أمومة وأمومة مرة أخرى وأخرى مع كل نفس تتنفسه الأم
(عيدة)..ترفض تناول وجبة الدرجة الأولى وتحفظها في شنطتها
لتنقاسها مع كل العائلة..

(عيدة) أمّ من زمن الأمومة ترسخُ دهرًا من أمومة لا تنضب أبدا..

أبدا..

قلمٌ وصفحاتٌ..

عند عودتنا من تدريبات الكشافة كل مساء كانت تنتظرنا عند عتبة باب (الفيلا)..

كانت أطول نخلة على الهضبة المطلة على وادي "قريش" وخليج
المدينة..

عبر حديقة (الفيلا) نسلك أشواطاً لنصل إلى الحجرة الفسيحة..

تَدَعْنَا نلهو قليلاً حول أحواض شجرة ورد "القطيفة" والأشجار
الأخرى ، ونشاكس الطاووس الذي يُفِرط في تبختره حين
يرانا.. تَدَعْنَا ننحدر إلى حافة الوادي نلهو بقواربنا الورقية يجرفها
السيل نحو باب الوادي. تقول لنا : لابس لابس سيأخذ السيل
قواربكم إلى "بيت ربي" ..

نصدّقها وفي الليل نصنع قوارب أخرى للغد ليأخذها سيل الوادي إلى
الكعبة..

هكذا كانت تقنعنا حين تناديننا كلا باسمه رغم عددنا الكبير:

- يا لله يا (ذَرَارِي) نَقْصِدُو رَبِّي..

حين ندخل إلى الحجرة كان أول ما يلفت انتباهنا قفص العصافير
المفتوح.. كانت لا تستسيغ سجن الطيور والحيوانات.. كانت عصافير
"المَقْنِينِ الْمُغْرَدَةِ" تحلق طول النهار، وتبني أعشاشها على أشجار
الصفصاف والصنوبر الفارحات من البستان.. وقبل الغروب تعود
إلى القفص لتخلد إلى النوم..

عند زاوية الحجرة مذياع ذو أزرار ذهبية ضخمة..

تفرش سجادة كبيرة تتوسطها مائدة مستديرة وَضَعَتْ عليها صفحات
ورقية.. قلم رصاص.. نظارة سميكة مكسورة من جهة تمسكها بشريط
لاصق وعلى حافة المائدة جريدة..

(لِلأَ مَعْنِيَّة) تُصِرُّ عَلَى أَن يَأْتِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِّنَ أَطْفَالِهَا الْعَشْرَةَ بِزَمِيلَيْنِ مَعَهُ فِي الْفَصْلِ لِذِكْرِ الْأَطْفَالِ سَوِيًّا. كُنَّا مَجْمُوعَةً مِنَ الْأَطْفَالِ ذَوِي مَسْتَوِيَّاتٍ مُتَبَايِنَةٍ وَفِي فُصُولٍ مُخْتَلِفَةٍ..

حِينَ كَانَ وَالِدِي يَحْتَجُّ عَلَى ذَلِكَ كَانَتْ تَقْنَعُهُ أَن لَا تَمَيِّزَ لَطْفًا دُونَ مَنَافَسَةٍ..

(لِلأَ مَعْنِيَّة) أَرْمَلَةٌ تَرَعَى أَطْفَالَهَا الْعَشْرَةَ الْأَيْتَامَ ذَوِي الصِّيتِ الْكَبِيرِ فِي حَيِّ "ابْنِ صِيَامٍ" أَعَالِي هَضْبَةِ (الْأَبْيَارِ) أَعَالِي الْعَاصِمَةِ الْجَزَائِرِ..

هِيَ مَكْنُونٌ مِّنْ قُدْرَاتِ تَهْيِيمٍ فِي مَلَكُوتِ الْأُمُومَةِ الَّتِي تَمْتَدُّ إِلَى أَبْنَاءِ الْجِيرَانِ وَزَمَلَاءِ أَطْفَالِهَا.. تَشْرَفُ عَلَى الْوَاجِبِ الْمُدْرَسِيِّ.. تَجْمَعُنَا فِي الْغُرْفَةِ.. الْكُلُّ يَرِاجِعُ دُرُوسَهُ.. يَحِلُّ الْوَاجِبُ.. الْكُلُّ مَنضِبُطٌ.. تَجْلِسُ إِلَى مَائِدَتِهَا تَقْرَأُ الْجَرِيدَةَ.. تَمْسُكُ قَلَمَ الرِّصَاصِ.. تَسْطُرُ الْأُورَاقَ الْبَيْضَاءَ.. تَنْقُلُ بِدَقَّةِ الْعَنَاوِينَ الْكَبِيرَةِ مِنَ الْجَرِيدَةِ.. طَرِيقَتِهَا فِي الْكِتَابَةِ مَدْهَشَةٌ.. كَأَنَّهَا تَرَسِّمُ.. ثُمَّ تَقْرَأُ الْجَرِيدَةَ مِنْ جَدِيدٍ، وَإِذَا سَمِعَتْ شَوْشَرَةَ أَحَدِنَا أَطْلَعَتْ إِلَيْهِ مِنْ أَعْلَى إِطَارِ النِّظَارَةِ فَصَمَتْ.. ثُمَّ تَسْأَلُنَا:

- يَا لَلَّهِ يَا ذُرَّارِي كَمَلَّتُو وَرُّو لِي..

نصطف أمامها.. تتمعن في دفتر كل واحد منا:

- زين.. زين..

ننزا حم عليها :

- (لأ.. لأ جاوبت صح؟؟)

من تعابير وجوهنا تدرك الواثق من إجابته من المتردد :

- إيه يا وليدي مليخ ، يعطيك الصّحة بآصح غدوة تُصحّ لك المعلمة
:

- أنت يا بنتي عاودي خَمِي وْجاوبي..وفي القسم إيصَحّ لك
الشيخ..

- لآ.. لآ..سمعي لي حفزت المحفوظات كلها..

- ياالله بسم الله ياووليدي..سمع لي..

- ونا..ونا..شوفي الإملاء تاعي..

تستغرق في الفقرة ، ثم تسترسل في وجه الطفل أو الطفلة.. تستقرئ
القسمات ، ثم تفصلُ في ذلك :

- آه علاش راك خايفة ؟ دِرتِ أخطاء بالزّاف..

سبق أن أخبرنا (لأ مغنية) من قبل عن (القاعدة المجنونة) ، فكانت
ترد كل أخطائنا إلى الهمزة..كانت واثقة أن الإملاء لا يخلو من
أخطاء الهمزة..

- آه روعي احفظي هاداك الدرس الواعر..

كبرنا..صرنا في الفصل الرابع والخامس..

كنت أستنكر حين تأتي لوالدي ووالدي ليقرا لها البريد..

صرتُ أسأل والدي عن ذلك..فيحرق في والدي بنظرة تأمرية ، لكن
عيناه الصّفروان الصافيتان كانتا تزيد توهجا ، وتفضحه حين يرغب
إخفاء ضحكته..

صرنا في المرحلة المتوسطة، وقد انطلقت دروس تعليم الكبار
المسائية..

تفاجأنا - مع أبنائها - حين أقبلت (للا مَعْنِيَّة) تسجّل في دروس محو
الأمية..

(للا مَعْنِيَّة) أصولها من مدينة "مُعسكر" من الغرب الجزائري، ابنة
لشيخ من إحدى قبائل "الشُرْفَة" المرابطين، شيخ من شيوخ زاوية
(سيدي محيي الدين) القادرية..

كانوا يرفضون تعليم بناتهم في المدرسة الفرنسية ، ويأخذونهنّ إلى
الزوايا يحفظن من القرآن ما يلزمهم لأداء الصلاة ثم يزوجونهن في
سن مبكرة..

(للا مَعْنِيَّة) تحفظ القرآن، لكنها لا تعرف القراءة والكتابة..

أمّية أوصلت أبنائها إلى أعلى المستويات العلمية.. تعلمت أخيرا في
تعليم الكبار.. تفاجأتُ بها وأنا أتطوع في المدرسة مع زملائي في
اتحاد الطلبة الجزائريين إحدى الدارسات في فصلي في مدرسة
الحي.. كانت قد وصلت إلى المستوى الخامس أساسي..

الليلة بعد العشاء وأنا أفتح (الفايس) خبر نعي وفاتها..

توفيت الليلة "للا مَعْنِيَّة" عن عمر يناهز ٩٨ عاما.. لم تتوفَّ
بـ(كورونا) ، ولا بأي مرض..

انطفأت..

تخطت مصطلح أرذل العمر فتوفيت بأجمل العمر..

رحمك الله "للا مَعْنِيَّة"..

كنت أمية..معلمة متفوقة في علمك بامتياز..

الرفيق

ضياء (الثريّا) يتمازج مع ألسنة اللهب تُضرمه القرويات على أسطح
الحصون الحجرية..

ضياء اللهب يعانق نور الثريا فيتناثر قَبَسٌ من التوهجات على سفح
الجبل والوادي..

دقات (المهباج) القروي يبعث عبقا سلسبيلا لِقَهْوَةٍ من بُنِّ الشَّطَّانِ..

رائحة أقراص البر.. أريج الريحان والسكّب في أحواض سطحها
يتناغم مع رذاذ المطر في أواخر صيف تهامة..

تَجَهَّمُ مع القرويين في نهاية السحر مواكبة استيقاظ الحياة التي تفيء
إلى رشدّها.. إلى النُّشور..

تستيقظ ترشّ الريحانة والبركّ والسكب والعِطْرَة..

تترشّف رشفات من قهوتها مولعة بحلاوة أواخر الليل التهامي ليل
(كبدع العسل أوله حلو وأخره حلو)..

الحياة في القرية تستفيق شيئا فشيئا تأهبا لمحاكاة الزرع والرعي
والسقي..

صوتٌ يتعالى كالعادة.. إنه صوت (صَعْوَة) في حُصْمَتِهَا المألوفة مع
زوجها الشَّقْوِيّ (مِرْعِي). ..تَوَعَّدُ ولومٌ وغضب يتلوه هدوء ثم النشور
إلى المِرْعِي..

لكن في هذا السحر الأمر بينهما لم يمض كالمعتاد..

جمعت (صَعْوَة) بعض حاجاتها في صُرّة ، وتأبّطت شفرةً وفأسا ،
فقد يعترضها حيوان مفترس في مسالك الجبل..

حملت ابنتها الرضيعة على ظهرها.. وها هي تسلك الدرب الترابي
عبر جبل (قيس) آزفةً الرحيل النهائي من بيت زوجها طالبةً منه
تسريحها بإحسان.. تغادر باحة الحصن الحجري..

تلتفتُ إلى (مرعي) كلما تذكرت أمرا :

- انبذْ لأملايَ (البقرة) بالفال..

- انبذْ لأمديكة..

- انتبه لامشاة قذهي تَنْتَجُ..

حوذِ امسِقلي لا يروخ امغنم على أمروث..

هكذا كانت توصيه بالقيام بكل تفاصيل المهام اليومية القروية : علف
البقرة ، ومراعاة النعجة على وشك وضع صغيرها وتنظيف
الزريبة..

- تم...

تم... أبشري..

هذه المرة يشعر (مرعي) أن زوجته جادة في قرارها..

يعترف أنه أرهقها كثيرا..

تشق الدرب الترابي..

يرسم ضياء (الثريا) ظلال رشاقتها على سفح الجبل.. ظللا تطول
وتقصر مع تمايل الرضيعة التي تحملها..

يخطُ ظلّ جدائلها الطويلة أثلاما على المدرجات الزراعية في تمايل
مع جدائل الدخن والذرة التي تترقب صريمها في نهاية الصيف..

رحلت (صَعُوة) عَبْرَ قَمَّةِ جَبَل (قيس) تَمْتَطِي صِهْوَةَ قَمَةِ (الشَّرْفَةِ)
نحو بيت والدها في (السَّرَوَات) مُصَمِّمة عازمة على أنها لن تعود
أبدا إلى زوجها الشَّقَوِيِّ (مِرْعِي)..

تخطو..

يتبعها كلبها ، وقطتها..

هي ما زالت على سطح بيتها ترقب مسرى (صعوة)..

تلمح ظلا مستترا خلف عروج العرعر والعثم والشث عبر صدر
الجبل يخطو خلفها..

موكبٌ صغير..

إنه (مِرْعِي) الشَّقَوِيُّ وعلى ظهره امدَاوَة (القِرْبَة) يسوقُ البقرة
والحمار و غَنَمَهُ..

تدرك (صَعُوة) كلَّ الأصوات التي تعقبها وهي تعرفها صوتا صوتا
في موكب (مِرْعِي) يسوقها خلفها..

- سِيئةٌ.. سَأا... - حَيِيِيِيئةٌ

- الله المستعان.. ما بكِ بَثْرِي مع حِلَّتِكِ.. (راحلتك)!!؟

- فَمَا انتِ مَيِّدِ أَقْضِي بها وحْدِي في امْبِيْتِ !!؟

أَعْدِي مَعَشُ بِيْتِ اهْلِشُ..

- أَنْتَ مَيِّدَ تَعْتَبُ مَعِي عند أهلي!!؟

فَمَهْ مَعَشُ.. مَعَشُ..

- ياللة ..ياللة.. عوَدْنَا على بَيْتِنَا لا تَفْضَحْنَا قَدَّ العَرَبِ..تَعْتَبُ مع
حَرْمَتِكَ عند اهلها !!

عادت (صَعْوَة) مع زوجها إلى بيتهما..أرضعت صغيرتها واحتزمت
بوزررتها..حلبت البقرة..أعدت (امثريف) - مفتوت الدخن - ، وطهت
دلة الفجر..أفطرا سويا وانطلقا إلى (امبلد) - المزارع- للعمل..
لم يُرض (مرعي) (صعوة) بقصيدة شعرٍ ولا بكلام غزل مُنمَّق ، ولا
بخاتم ألماس أو عطر فرنسي..

حاورها بعفوية..

أخبرها أن بيته دونها عدم..

لم تطالبه أن يتأسف لها ، ولا أن يقدم لها رضوة..

تيقنت من حبه الكبير ، فعادت لتحيا معه..

يدقُّ (الماسنجر)..

أرد..

أشعلُّ (الكاميرا)..

إنه (ستيفان).. **madame madame ns sommes**

..connectés de nouveau c'était une forte tempête

مدام ..مدام.. نحن على اتصال من جديد كانت عاصفة هوجاء..

إنه صوت (ستيفان) مع مجموعة من طلابي من (سيذني)..

أعودُ إلى العمل معهم (أونلاين) كالعادة أصارع فارق التوقيت بين
القارتين..

حين انقطع تيار الكهرباء في (سيدني) بسبب العاصفة غفوتُ
واسترسلتُ في أصوات الشباب مع المهندس/ محمد طالع يُتمُّ تشييد
(الكوخ الألمعيّ) مع شباب القرية.. يشيدون برج النحل ، ويمدّون
أسلاك الكهرباء الملونة هنا وهناك عند القصبية وعلى الحصون
الحجرية.. يعيدون إلى القرية حياةً بعد صمتها إثر طفرة ما..

أحدّق في الأضواء الملونة للقصبية عند بيت العم (ذبيان).. أسترجع
من ذاكرة قرية (خُرار) و(ميل قيس) عبور (صَعوة) عاتبةً إلى بيت
أهلها في تالي الأسحار..

أسترجعُ قصة حب بين زوجين..

كان حبًا وأي حب!!

كان أقوى من كل ذلك..

(صَعوةٌ ومِرْعِي) لم يكونا (مُهَدِّدٌ ونُور) في مسلسل تركي..

كانا زوجين جمعتهما العشرة الطيبة وقيمة تعلو كل قصص الحب
المألوفة هي :

المودة والرحمة..

سيدات من ضياء الشفق

تقلب القماش الأسود المخملي

ما أجمله وأروع!! لون أسود يُبدد كل ذلك التشاؤم الذي توارثته
عن عجائز ديارها..

اندثر التشاؤم من سواد الثياب مع قدوم (موضة) العباءة السوداء
المخملية التي أرفقها المعتمرون والحجاج من بيت الله إلى هداياهم ،
فكان لها وقعا خاصا على الروح..

ولبسها السيدات

. ترفل فيها متسترة حين تأخذ زينتها

للأعراس ، وشيئا فشيئا أخذ ذلك اللون منحى مناقضا لدلالاته القديمة
في ثقافة المجتمع من لون للحداد عند بعض الأقوام إلى لون للفرح
والدلال المحتشم..

هي مثلهن وأكثر من ذلك..

حين قدم بها رفيقها ليُتوّج زوجته

بذلك الستر المخمليّ حين ترافقه إلى دياره ، فكانت عباة وعروس
كلاهما تلف الأخرى بالجمال ووقار اللون : لون القماش..مخمليته
تعيدها إلى عهد زهرة (مسك الليل) التي انبلجت

من صلادة الصخر يلفها دُجا ليل دافئ يحجب تفاصيل زهرة عطرة
في قلب الصوان..

راحت تلفها فضفاضة فسيحة حول جسد الطفلة التي فقدتها حين
طوّقها مجتمعها بحجاب حديدي صلب يفرضه مجتمع رجولي مستبد
في تعنته..

تمتطي مناكب الأفق بصحبة رفيقها إلى دياره.. تجزّ مغزلية الطائرة
الرواق السماوي بين مغارب الأرض ومشارقها..

عروس عادت إلى زمن الطفلة التي ضلت عنها طويلاً.. سيدة تُعْتَق
حركتها في ظلال تلك العباءة الفسيحة .. تتحرك بين الممرات في
الطائرة بكل حرية لا تخشى أن يرسم ثوب فولاذي ضيق فضّ
تفاصيل جسدها، بين دجا العباءة وبياض لباس المعتمرين وبين
غسق الليل الذي ينقشع عند زاوية السماء الشرقية تعود إلى نشوة
بهجة الطفلة.. تُزامن ذلك الليل المتداخل نحو أول خيط أبيض يتجلّى
في سماء مدينة جدة.. تزامن به إحساس من الحرية الطفولية يعود إليها
حين كانت تقلد والدتها وتلتف في (حَايِكْ لمرمّة) الناصع البياض
يضمها بنفحات الأمان والحرية والنقاء..

بين ذاكرة لون لحاف والدتها الأبيض البراق المنسوج بخيط الحرير
الخالص ومخملية العباءة يلازمها وعد سماء أرض تعدها بالأمان
والتحرر والعودة إلى قالب الأنثى التي ضاعت منها في لباس
الجندي..

تَحْطُ الطائرة على أرض (جدة) .. هي سيدة واثقة الخطى بعباءتها
نحو البوابة الخارجية ، وجهها مكشوف.. مشهد غير مألوف للمرأة
قبل ما يقارب 3 عقود من الزمن في السعودية..

الكل يُحدّق فيها مُستغرباً..

انتهى وقت المُراعاة..

يسحبها من ذراعها إلى الزاوية..يُوشوشُها :

- يا بنت للعباءة (أكسيسوار) يوضع على الوجه ، أخذت لك واحدا
لكن لا أعرف هل هو بالمقاس أو (فري سايز)..

أخرج رفيقها قطعة من القماش الأسود وطلب منها تغطية وجهها بها
بالكامل..

- لكن ماقلثيش على هذا الأكسيسوار) من قبل ، وغلّاش خبيته في
شنتك إلى وقت وصولنا؟!!

- أحنا وصلنا للديار وتصرفي كما ترين الأمور من حولك..يخاطبها
بوتر صوت خشن أمر..

صمتت..ترغب في الكلام في الاحتجاج..أمنت أن لكل أرض
ضوابطها..صمتت مرة أخرى..تذكرت كلام والدها :

(الطفلة زريعة كل بلاد) ، و(كتختاري تعيشي مع قوم عيشي
عيشتهم وكولي من زادهم) ومضت معه..

- أكسيسوار وياله من أكسيسوار !!..

قال لها :

- للعباءة أكسيسوار وياله من أكسيسوار :

غطاء أسود ذو طبقات..

تساعدنا إحدى المسافرات في المطار على وضعه من أعلى رأسها
إلى ما دون صدرها.. ينسدل على وجهها حاجبا مجالها الإدراكي
عن الرؤية..

تحاول إمساك طرفي العباءة (البشت) حتى لا تنفتح فينكشف جسمها ، في أن واحد تمسك حقيبتها التي تنفلت منها كل حين وحين..
تتجه نحو بوابة الخروج يتقدمها الرفيق..

تشعر ببعض الاختناق وصعوبة التنفس من الغطاء الذي كان يسد كل المجاري التنفسية لديها فيحجب عنها الأكسجين.. شهيق وزفير بمشقة وكأنه تصاعد نحو السماء..

لم تكن تهتم بكل هذا.. تتبّع بياض مواكب المعتمرين الذين يمضون في تفويجاتهم.. إحساس جميل يغمرها.. تنتشي روحها مع تلبيةاتهم.. شعور أزلي بالسكينة والاطمئنان.. صفاء روحي.. إحساس بأمن وأمان لن تقدر على تأمينه فيالق من عسكر الشرطة والدرك في العالم..

تتيقن أن هذه ذات السكينة التي كثيرا ما حدثها عنها المعتمرون والحجاج.. سكينة مُتفرّدة نابعة من هلامية الإحساس بخصوصية الأرض..

هي على أرض القبلة !!

هي على الأرض التي ندخلها نبكي من هيبة جلالها ونغادرها نبكي مكبلين بأجسادٍ صارت مفرّغة من أرواحها التي أبت العودة إلى ديارها فبقيت جارة لبيت الله..

أيام معدودة في مدينة (جدة) للتسوّق.. حركتها مُرتابة من التدرج المستمر عند كل درج.. ساقاها مرتبكتان عند تشابك أطراف عبااتها الطويلة مع كل درج ميكانيكي..

سقوط حُرّ عند نزولها من السيارة مُنكبةً على الإسفلت في المواقف
مُتسلاخا جبيئها وركبتها من الالتطام بالإسفلت الخشن..

في المتاجر تحاولُ الحديث إلى العامل الهنديّ في محلات خاصة
بالمقتنيات النسائية المُحرّجة إبان عهدٍ لم تكن بعدُ يمامات السعودية
قائماتٍ على البيع والشراء..

ترفع قليلا الغطوة لفحص الخامة واللون يزامنها دوارٌ لعينيّ البائع
الهنديّ تدور وتلف في كل اتجاه في وجهها مدققا في تفاصيله ،
ورفيقها هناك بالمرصاد نظراته تُنذرُها بالوعد والوعيد كلما انكشف
سنتيمترٌ مربّع من يدها أو قدميها الملوفتين بشاش وكمّادات من كثرة
السقوط والالتطام بالكرة الأرضية حين تحجب الغطوة مجالها
الإدراكي..

تسير على اليابسة عشوائيا كأنها تعرج في الفضاء تتداخل ظلال
عباءتها مع جسدها الذي يتقمص حركة كائن فضائي..

ظلال في سباحة مغزلية تمورُ خلف خطى رفيقها والتي يتبادى لها
طيفها ضئيلا من تحت الغطاء الأسود..

لم يعد ذلك الرفيق (الجنتلمان) (بريستيجيا) حين كان يفتح لها باب
السيارة ويقول لها : تفضلي (ميسيز فرُست)..

لم يعد يفتعل (برتوكولات) إنجليزية

كما كان يفعل في الشهور الأولى للزواج في ديارها..

- أين سكان المدينة..!؟

مدينة جدة.. طريق الساحل..

أزف الرحيل نحو الجنوب الأخضر ، خط ساحل (البحر الأحمر) ..
تستكشف شتاءه الدافئ.. تدفع الزوجين نسائم بحرية عذبة تسلك
منحى أودية تهامية مناظر فردوسية لتجذر (عروج السدر والسمر
والأعشاب العطرية) في بطونها..

نحو الديرة ، نحو القرية..

المشهد البشري والطبيعي مألوف لديها وكأنها تنتقل إلى إقليم
(الهضاب العليا والتلّ) في ديارها..

تألف وترحيباً في رحاب الأهل ، العائلة، العشيرة والقبيلة..

افتتاح الحياة الزوجية عند منشأ الرفيق كان أساسيا ، وحن الوقت
للانتقال للاستقرار في المدينة.

مدينة (أبها) الحاملة المتربعة على عرش شماريخ جبال (السّروات)
مدينة.. قرية كبيرة بحلّة مدينة ، ومدينة بملاح ريفية ممتدة نحو
أطراف صحراء (الرّبع الخالي) شرقا ، تنوّع في التضاريس.. قمم ،
أودية ، أحراش، أفنية غابات العرعر والصندل..

إلى الشرق ملاح واحات وكتبان الرمال الذهبية خلف مدينة
(الخميس)..

مدينة (أبها) عاصمة عسير) ، حاضرة طبيعية ، أرسيت فيها كل
أسس المدينة الحديثة.

كل شيء على ما يرام ، ولكنّ هناك أمورا تُورّقها.. تُورق صفوة
بنت المدينة العتيقة الصاخبة.

اختارت أعلى دور في مبنى العمارة..(بلكونات) و(فيرندات) تطل
منها على السماء ، وعلى تعاقب الليل والنهار..

تطلّ على شوارع تحتضرّ في صمت رهيب،،

تتساءل أين الناس؟ أين الجارات اللاتي أبادلهن أطراف الحديث من
الشرفات والنوافذ؟ أين ضوضاء المدينة وصخبها؟ أين المشاة؟ أين
حياة الرصيف والساحات العمومية؟ أين رحل سكان المدينة؟ تُطلّ
من كل الاتجاهات على البنايات..

ما حولها سكون صارخ..كل البلكونات مُوصدة ، تُطلّ على الشوارع
المحيطة.. بعض العمالة الوافدة تصنع ملامح بخيلة للحياة.. عمال
يتنقلون مشيا في أوقات الصلاة بين دكاكينهم والمساجد.. في خضم
هذا الهدوء القاتل تتبادى لها بعض المؤشرات تُعدها بتواجد
جيران..أنوار البيوت تضيء بعد المغرب.

طابور المدرسة المقابلة لبيتها يرسم منحى لزمن النهار البليد في
طوله بأصوات التلاميذ عند دخولهم وخروجهم ظهرا ، ثم اختفائهم
من الأزقة .. صوت الأذان والصلاة يشير إلى سيرورة النهار
يجرفه قرص الشمس المتحركة من حاوية السماء تطمئننا أن الزمن
في المدينة في ديمومته يتحرك ، وهناك حياة ما تمضي رغم صمت
المدينة..

تطل من الناحية الأخرى.. تلمح بعض أطفال المقيمين الأجانب
يلعبون الكرة بعد العصر في الزقاق ..

لا بأس يتبدد شيئا فشيئا هلعها من كل ذلك السكون في الشوارع
الخواوية..تستبشر بتلك المؤشرات تُعدها بجيران تمنحها آمالا
بلقائهم..

ما زالت تنتقل من بلكونة إلى أخرى لابسة عباءتها تغطي وجهها..لقد استوعبت كل ضوابط مجتمعا الجديد ، لكنها لم تقدر على التخلص من أداب الجيرة..

هاهو طيف سيدة في البناية المقابلة يتحرك مستترا بستارة النافذة.. لا تصدق عينيها.. تشير لها محيية.. ترد عليها جارتها منذرة برفع ذراعها تطلب منها الدخول إلى البيت..

تخرج إلى بقالة الحيّ.. ها هو جارها يفتح باب عمارته ، تسرع لتحيته :

- مساء الخير (سي الحاج.. واش راكم) ..أنا جارتكم زوجة فلان..

لا يرد التحية ، يكاد يُغمى عليه.. يهوي المفتاح من يده.. يدير ظهره.. يلتطم رأسه بالبواب الحديديّ.

تصمم على أخذ حاجتها من (السوبرماركت) حتى لا تكون عبئا على زوجها ..تخرج فتلاقي ابن الجيران .. شاب مهذب مرتب الهدام مُلتح :

- كِصَبَحَت خُويا..سَلِّم على الوالدة وقل لها جارتنا تحبّ تتعرف عليك..

- يَحْمَرّ وجهه.. لا يرد التحية..يهزول نحو سيارته مُتمتِما : أستغفر الله..

أستغفر الله..

أيام تتوالى في الحي كلما أَلقت التحية :

- صباح الخير (السّي الحاج)

- مساء الخير عمّو

- كمسييت خويا سلم على الوالدة..

لا أحد يرد عليها التحية.. الكل يدير رأسه ويلتطم بالجدار
يستغفر ويمضي ..

تمشي إلى السوق القريب وسط البلد..

تُحدِثُ ربكة في حركة المرور..

مركبات تُفرمل فجأة ترُجّ سكون الشارع.

(كروت) وقصاصات من الورق تتناثر عليها من نوافذ السيارات ،
كُتبتُ عليها أرقام هواتف..

تدرك أنها المرأة الوحيدة التي تمشي في الشارع.

بدأت تتحقّظ عن تحية الجيران وقررت أن لا تمشي أبدا للسوق..

مكنت في البيت مكتفية بتبادل الزيارات مع الأهل المقربين فقط .
تردّد المثل الشعبيّ :

(الطفلة زريعة كلّ بلاد وكلّ بلاد وارطالها).

أما الرفيق فهو في غبطة لقرارها هذا..

ذات عصر..

طرق بابها..

تُطلّ من العين السحرية :

- شكُون؟

- ضيافُ ربِّي..تُرد عليها من خلف الباب..

تلمحُ عبر العين السحرية باقةً من الألوان تزدان بها سيدة مُسِنَّة لم
يؤسّرُ وجهها تحت الغطاء الأسود..

تفتح الباب..

- أنا (مُضَاوي) بنت الشيخ (مُفْرَح)..جارُتَشْ (جارُتَك) ، من قبائل
عسير..

تكاد تطير من الفرحة :

خيارُ الناس لَلا..عَسَلامة..عَزُ الله مَن جَانا..

ثم تصمت مُنبَهرةً لوقار السيدة الصبية في عقدها الثامن، تُبحر
عينها في توهج منديلها المُنغمس في عطر النَّعْرِيَّة (الأزهار
العطرية المجففة) ، عطر رسّخ لونه الأصفر من نثرات السَّكَب
والقرنفل والريحان المُجَقَّف ، يعلوه منديل مخمليّ أسود مُقَلَّم بخيوط
استشفت ألوانها من رونق كل الشجر والزهر البري على جبال
(السروات) ، تنسدل منه ضفائر مُحنّاة غزيرة من غزارة كرم بنت
الشيخ العسيرية..

ترحل في حنايا تقاسيمها..تغوص في عينين استعار المرُود كحلا من
غسقهما..عينان زَيْنَتَا المرُودَ من دُجَاهَا ، ينسكب على وجنتي سيدة
الحُسن شفافا تبرا من صفرة عسل السدر يمنح وجهها لونه العربي
الحنطي الذهبي..حُسنٌ من لون عسل (المَجْر) يرسو على مَبَسْمَا
يكتب على شفثيها كلمات بطعم حلاوته :

- مرحبا مليون بين أهْلشْ (أهلك) ، حيّا الله الجارة التّحيفة (الحلوه)
ابرة (بنت) أبوها.

تستغرق العروس في قوام أطول سدره في أودية التهائم ، صبية
ثمانينيّة يابى قوامها الانحناء أمام سلطة الزمن الذي يجرفه السديم
الذي يلف قمم عسير.

على كتفيها نصيفٌ من اللّحاف المقلم ببانوراما مراعيها ، يستر
ثوبها العسيري المُطرز بخيوط الحرير المزركشة..

تشد خاصرتها بوزرة من أطياف شجر البُنّ في أصدار جبالها ،
تطوّق وزرتها بحزام من الفضة الخالصة..

تستقبلها في المجلس..

تُخرج من كيس كبير حافظة طعام أحضرت فيها (عصيدة) من البُرّ
الأسمر العسيريّ يغمرها سمن ذهبي ذو أريج من هفوف
حقولها.. يتوسّط العصيدة قدحٌ من عسلٍ تِهاميّ مُصقى.. ما زالت يد
الشيخة (مضاوي) تغوص في الكيس كرما ، تُخرج كيسا به كمية
من الهَيْل

وقشّر البُنّ وكيسا من الحنّاء ولوازمه ومنديلا أصفر وشيلة مقلمة
بينها ورقة نقدية ب (مئة) ريال ، وبقاقة من أطيب الريحان والسكب ،
تخاطبها :

- اعذرينا على التقصير.. هذي طَبْخة (هدية) قَدْر لَشْ..

- صَحّ لَلا (أمّي مضاوي) قَدْرِكْ عالي .. وجهك عزيزٌ ووَغالي ..

ترد الجارة العروس.

- يا حبيبتى جارَاتِشْ (جاراتك) في الحارة مَيْدْ (نود) نُرْحَبْ بِشْ (بك) وئَحْيِي (عَلاش) عليك..

- عَزْ مَقْدَارْكُمْ لَلا ..ثلاقو خير ..ترد..

أخبرتها كبيرة الجارات في الحيّ الشّيخة (مُضَاوي) بموعد عزيمة
وسَمرة في بيتها يرتبها كل الجارات للترحيب بها والتعرّف عليها.

ترحيب وأصالة الضيافة..دِلَالُ القهوة العربية من بُنّ جبال (قَيْفا)

وجبال (الحَشْر) و(العرة) وأصدار (رجال المع) وتمر الصفاري
والسّكّري والخلاص من واحات(بيشا) والأحساء والقصيم تَصَبّها
أيمانُ كبيرات الحارة وعلى وجوههن وعد المحبة وعنوان الصدر
الرحب.

مأدبة عشاء صُنِفَتْ على سُفرتها ذاكرة الأطباق الشعبية في أرض
(عسير) سرواتها وتهائمها :

خبز المَيْفا (التتور) بنكهة نار الصنْدَل ، أقراص حِنطة وشعير وذرة
الأرض..عَصيدة الدُخن والبُرّ المغمورة بسمن الغنم والبقر..أطباق
(القرْصان) و(المَرَقوق) وفنّة الخمير ، وصحون مُفطَح (الحنّيد)
و(المَنْدي) من مراعي(تهامة)

وحلا من صنع الصبايا اللواتي ازدانت بهن السمرة رشاقة وخلقا
وخلقا.

سمرة انسابت فضاءاتها مُسلسلا لتعاقب أجيال الجدات والأمهات
والحفيدات العسيريات ، في لوحة جبليّة للفنون..

املْعَبْ (الفلكلور النسوي) تحفه ترانيم وطروق وأهازيج
الترحيب(زائن صفوف املْعَبْ واثبارك الله من يوم زاعوا حِصانا)..

صفوف الخطوة ووقع طبول (الزير) و(الزلفة) و والأهازيج

....

..... والز غاريد..

ترفل الجارة العروس الفتية على متون أزمنة من تعاقب تلك الأجيال
في توارث أصالة الأرض.

ليلة عسيرية في الحيّ تجسد أرضية صلبة لسمود قيم الضيافة
والترحيب تعلوها وصية النبيّ في الجار السابع.

فكان لها تشريفُ

وترحيب كل الجارات في الحارة وماحولها..

أزهر فؤادها سكية ، وانقشعت وحشئها وانجلي شعورٌ كان يلجُ بها
في مناكب الوحدة في المدينة التي لم تستسغها قبل لقائها بجاراتها
بالأمس.

بعد المغرب من اليوم التالي هاهي الشيخة (مضاوي) و الجارتان
(عطرة) (وصندلة) يطرقن الباب..تفتح ، ألفة قبلية تجمع بينهما..
يرفضن الاستضافة في المجلس يدخلن الصالة يطلبن منها عدم
التكلف ، معهن أقراص خبز ودلالُ قهوة عربية ودلة قشر البُنّ
و(ترموس) شاي أحمر مُعطر بالحبق وتمر..

تشرع الشيخة (مضاوي) في الحديث :

- يا حبيبة أنتِ الحين بنتنا وما تشوفين منا إلا العلم الطيب..أنا
ومّش(أمك) وكل جاراتش أخواتش (جاراتك - أخواتك) بنات ناس
وأنتِ ابنة (ابنة) اجاويد..

استشعرتُ من كلام الشيخة أن هناك أمرا جادا قادمًا في الحديث..

شرعت الشيخة

و(عطرة وصندلة) في إلقاء مزاميرهنّ على الجارة الفتية بالتداول
بحكمة وتروّ:

- ذا الحرّة (الحين) صرتِ ممّا وفينا وانتِ من بيت طيّب وبنت ناس
كرام..

تُكمل الأخرى..

- لا عاد تتبادين (تطلين) من الدريشة (النافذة) ولا (البلكونة)..

- لا عاد ثحيين (تسلمين) على جار شابّ والآ شايب..

- ولا عاد تطلعين لأمسوق (السوق) والآ البقالة وحدث (بمفردك).

- لا عاد تمشين وحدث في الحيّ..

ويكملن :

لا عاد.. ولا تسوين هذا.. ولا عاد.. ولا عاد..

تحتج :

كيفاش.. كيفاش..

ما نفوش صباح الخير ومساء الخير على جيرانى رجال ونساء!!

كيفاش ما نرْميش السلام على جيرانى وأولاد الحومة يقولوا عليّ

ماشي مثرّبية ومكبرة!!!

تحتج وتندھش لتلك الوصايا..

لا تستوعب كيف تصدّ وجهها ولا تسلّم حين يصادفها جار كبير
السّن أو شابّ من أبناء الحي ، تخشى أن تُتهم بالتكبرّ وقلة التربية
والذوق !!

ترد عليها صندلة :

ليس علاش منهم.. لست في شأنهم (لا تهتمين لأمرهم)..

تضيف العروس :

- كيفاش ما ئديرش (لما رش) (كيف أنقطع عن المشي) كيفاش نطلب
من راجلي ياخذ لي كل شي من السوق؟! أنا نحشم منه بالزراف
عليه التعب..

تحتجّ مرة أخرى.. صعب عليها عدم المشي وأصعب أن تطلب من
زوجها إحضار كل شيء لها بنفسه خشية أن تُرهقه بطلباتها التي
تقدر على إحضارها بنفسها..

يرد عليها الكلّ :

أنتِ هنا زوجة.. أنتِ ملكة.. أميرة.. مُعززة مُكرّمة في بيتك وزوجك
يحضر لك كل طلباتك..

راااااق لها ذلك !!

تضيف (عطرة) بالأمر :

- إذا غاب زوجك

اطلبي منا طلباتك ، وإذا أردت الخروج سنرافقك مع السائق ، أما
المشي فإذا سافرت إلى مكة أو المدينة أو جدة فامشي كما يروق لك..

شَعَرَتْ بِإِحْسَاسٍ جَمِيلٍ مِنَ الدَّفْعِ الأَخْوِيِّ وَاسْتَشَعَرَتْ تِلْكَ
الأَحْضَانَ الرَّحْبَةَ الَّتِي تَفْتَحُ لَهَا ذِرَاعَيْهَا حُبًا وَخَوْفًا عَلَيْهَا ، فَهِيَ
عُرُوسٌ فَتِيَّةٌ ، وَمَشْهَدٌ لِسَيِّدَةٍ صَبِيَّةٍ تَمْشِي فِي الشَّارِعِ لَوْحَدِهَا فِي
مَدِينَةٍ (أَبْهَا) قَبْلَ ثَلَاثَةِ عَقُودٍ كَانَتْ مَشْهَدًا شَاذًا نَوْعًا مَا .

ثَلَاثَةُ عَقُودٍ مِنَ الحُبِّ وَالْأَخُوَّةِ

وَالْعَشْرَةَ مَضَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ خَالَةٍ (مُضَاوِي) رَحِمَهَا اللهُ ، وَ(أُمِّ مَرْعِي)
وَ(أُمِّ شَيْبَانَ) اللَّتَيْنِ مَا زَالَتَا تَسْهَرَانِ عَلَيْهَا وَتَحَاصِرُهَا حُبًا وَوَصَايَا
أَمْرَةٍ رَغِمَ العَمْرُ الَّذِي تَوَسَّطَ تِلْكَ العُرُوسِ ..

مَا زَالَتَا تَرَاغِبَانِهَا إِلَى الأَمَاكِنِ الَّتِي تَدْخُلُهَا لِأَوَّلِ مَرَّةٍ بِذَاتِ السَّهْرِ
عَلَى العُرُوسِ الصَّبِيَّةِ ، وَبِذَاتِ تَمْتَمَاتِ تَعْوِيذَاتِ التَّحْصِينَاتِ مِنَ
العَيْنِ وَالْحَسَدِ .. وَمَا زَالَتِ تَسْأَلُهُنَّ : هَلْ لَيْسَتْ عِبَاءَةٌ مُحَارَمِي؟!!

هَلْ أَنْتَنَّ (بُودِيْجَارْد) عُرُوسٌ تَخْطُو نَحْوَ عَتَبَةِ النِّصْفِ قَرْنًا؟!!

نَعَمْ (البُودِيْجَارْد) حَبِيبَاتِهَا :

الشَّيْخَةُ (مُضَاوِي) رَحِمَهَا اللهُ ..

نَعَمْ (البُودِيْجَارْد) : يَمَامَتَانِ عَسِيرَتَانِ : (عِطْرَةٌ وَصَنْدَلَةٌ) ..

بَقِيَّتَمَا لَتَلْكُمَا العُرُوسَ حُبًا وَأَنْسَا وَأَرْضَا طَيِّبَةً .

الشَّيْخَةُ (مُضَاوِي) وَ(جَمْعَانَةٌ) وَ(عِطْرَةٌ) سَيِّدَاتٌ مِنَ ضِيَاءِ الشَّفَقِ ..

يَمَامَات

يَمَامَات الْحَرَمِينَ..

- لا لا تشربي يا حاجة!..!

- (يا لهويّ تمنعيني من أن أشرب وأنا جارة النبي من مية ربنا موية
زمزم)؟!..

تضعُ المراقبة كفها على الحنفية..

تخاصمها الحاجة..

يتجمع المعتمرات من كل جنس حولهما..

تصر الحاجة على الشرب من حنفية أخرى..

تنصبّ الشتائم والسباب على المراقبة من الحضور بكل اللغات..

تلاحق المراقبة العجوز التي تُصرّ على الشرب لتمنعها..

تفاقم الموقف..

تصيح المرشدة : (يا حاجة هذه موية وضوء لا تصلح للشرب ،

تعالى معي آخذك فوق حيث موية زمزم مبردة داخل الحرم)..

أخيرا فهم الكل الموقف..

التحقت مراقبات أخريات لتتهم بالحاجة المصرية (ثلاث مراقبات

كالورود ، بيض الكفوف، مشرقات العيون التي تشع الرحمة من

وراء حجّهن...

في موكب من الرحمة والتراحم يرافقن الحاجة التي لا تعرف كيف

تصعد الدرج الكهربائي ، ولا تستطيع صعود الدرج العادي.. برفق

يمسكنها ويحطن بها حتى لا تسقط..

أخيرا يبلغن ساحة الحرم..

تقودها إحداهن إلى باب (25) من المدخل النسائي..

تسلمها إلى المرشدة.. تقودها المرشدة إلى مكان مياه زمزم المبردة.. تمسك بيدها خوفا عليها من الازدحام.. تسقيها كوبا من ماء زمزم.. تمسح على وجهها وتجلسها في مكان آمن من التزاحم لتصلي في أمان..

حان وقت زيارة الروضة. يتجمهر جمع الزائرات من كل فج عميق.. كلهن يزرن الروضة الشريفة.. تدافع وتسارع وتسابق لبلوغ بوابة الدخول.. صف من المرشحات والمراقبات يصنعن سدا منيعا.. تراص.. عزم لتنظيم الدخول والزيارة في أمان، في تفويج وحركة انسيابية دون مخاطر.. تخاطب مع الجموع بكل اللغات.. مواكب الزائرات من كل الحضارات والمجتمعات والاعتقادات.. منهن من يسلمن على الجدار، ومنهن من يئحبن، ومنهن من يزغردن..

المرشحات والمراقبات قدرة واستعداد وملكة.. معجزة عبقرية في سبل الإرشاد.. إرشاد الأمية والتي تكاد أن تكون بدائية من الزائرات.. توجيههن بكل اللغات، وتوعيتهن دون جرح مشاعرهن أو إشعارهن بجهلهن لأمر دينهن وآداب زيارة الروضة..

هنا موقف آخر أسر تفكيري، وأنا من اختصت بعلم البيداغوجيا والتعلم واللغات والتبليغ: عجوز معتمرة من الجزائر تعتقد أنها تزور في الروضة قبر الولي الصالح، وأخرى تعتقد أن النبي دفن داخل الكعبة، وأخرى كثيرات من أمم أخرى يعتقدن أنهن يعتمرن في مسجد قباء، و... و... استنجدتُ بالمشرفة في شأن المعتمرتين من بلدي، لأنني فشلت في تصحيح ذلك مع كليهما خوفا من أن أفقداهما

روحانية الموقف..أقبلت المشرفة وبكل بساطة صححت لدى
العجوزين هذا الاعتقاد دون تنفير بل بترغيب وبساطة ورفق ولغة
فهمتها عجوز أمازيغية. نجحت المشرفة أن تصحح اعتقادا راسخا
في مفهوم المعتمرين إلى حقيقة المناسك في العمرة والزيارة...
مرشدات ومرقيات.. سيدات وفارسات.. حمامات ترفرف في
الحرمين ، جنديات خفاء يعملن بصمت ووقار واحتشام
وحياء..سيدات سعوديات أنجبتهن أرض الحرمين ، ولم يعطينَ
حقهن من الإشادة والامتنان منا...نعتمر ونحج ونصلي في الحرمين
، ونمرّ عليهن مر الكرام . ألا يكفي ولو للحظة لو تخيلنا الحرمين
دونهن؟!!

نحن ندرك عمل الشباب، لأنهم في الواجهة ، لكن أين حق هؤلاء
علينا لنقول لهن شكرا ودمتن للحرمين نورا وإشراقا..

أسترسل في التأمل:

شباب رجالا وسيداتٍ يخدمون الحرمين في صمت ووقار..

أهالٍ وقيادةً ، يخدمون ضيوف الرحمن في أرض الحرمين منذ
عهود ضاربة في أغوار الأزمنة..خدمة وتأهبَ وراثته وفطرةٍ ومملكةٍ
حُص بها أهل هذه الأرض ، يزيدها التدريب والوسائل مهارة ومهنية
فقط ، لكنها هنا فطرة عند كل من تعاقب من أهالي هذه الأرض
الطيبة التي خصها الله وأكرمها بالحرمين ، فاختر لها أهلها..

إعلامٌ وهالة صحفٍ وأخبارٌ تريد أن تستورد لأرض الحرمين من
يخدمها ، لكنها بكل بساطة وسذاجة تجاهلت أن الله اختار هذه
الأرض الطيبة لبيته الحرام وخلق لها أهلها ممن يخدم الحرمين
بفطرة إلهية.. قادة جيش وكشافة وشرطة ودفاع مدني وصحة

وسيدات مراقبات ومرشدات من أهل هذه الأرض يملكون فطرة
هذه الخدمة المقدسة التراكمية الزمنية في الكرم والسهر على
استضافة ضيوف الرحمان...

سيداتُ أكلنهنّ الذئاب..

حين حطت رحالها تارة في السروات وتارة أخرى في التهائم راق
لها ذلك الصعود والنزول عبر العقبات والقمم والأودية ، وراق لها

أكثر من ذلك التحرر من (الدركسيون) وقبضة المخالفات المرورية
وتصلب ساقها الأيسر من الدّوس على (كلاش) مركبة والدها اليدوية
وهي عالقة في ازدحام مدينتها الصاخبة.

أخيرا تحررت من كل ذلك ، فهناك من يقوم بمهام السائق وهي
مسترخية على المقعدة تستكشف وتستمتع بالجبل والوادي..

ظلت لفترة تستمتع بانعقادها من القيادة إلى أن بدأت تواجه أزمة
المواصلات في المكان، فسرعان ما تحول إحساسها بالتحرر إلى
تبعية السائق..

هي ترغب زيارة الأقارب.. زيارة صديقاتها.. التنزه.. وخاصة السوق.
السوق وأزمة الذهاب إلى السوق واستدمار معشر الأزواج من
الانتظار في مواقف الأسواق.

كان هو ككل الأزواج يتأفف من التسوق معها ، لكنه في كل الأحوال
كان مرغما على ذلك، وكانت هي زوجة روتينة ككل الزوجات لها
طلباتها اللامنتهية من السوق والتي تزداد مع موسم الأعراس كمتتالية
هندسية.

زوجة روتينية يصطحبها زوج مرغم على أداء مهام السائق إلى
السوق.. عصبىّ يتمتم طوال الطريق يُعزّرها عند النزول ككل
الأزواج :

- يالله تسوّقي "بسرعة ورأي مواعيد" ..

هو كمعظمهم وأكثر ، مستعجل دائما حين يصطحبها إلى مكان ما،
وحتى في الحج والعمرة والزيارة :

- يالله اعتمري بسرعة.. يالله زوري بسرعة..

يالله حجي بسرعة..

طوفي الإفاضة بسرعة.. وككل الأزواج رائق هادئ عند لقيا الرفاق
والسَّيل..

زوج مستعجل في مواقف الأسواق لكنه مستغرب من هذه الزوجة
التي تدخل السوق بسرعة وتخرج بسرعة ، وفي الغالب لا تشتري
شيئا..

يتساءل مستغربا :

- هي على غير نواميس النسوة!؟

لم تكن تتأخر في السوق، لا امتثالا لأوامره ولا طاعة له..

تدخل إلى السوق تبحث عن عما يلزمها..تواجهها مشاكل في كل
محل : بائع أسوي لا تفهم كلامه ولا تعرف التكلم بعربيته المهجّنة..

تُخرج خاصة في محلات الأشياء الخاصة جدا بالمرأة..

حياؤها يشلُّ لسانها..

لا تجرؤ على رفع تلك الملابس الخاصة جدا بالمرأة ، ولا تجرؤ
على سؤال البائع عن المقاسات..

تخجل..تطأطي رأسها وتغادر بسرعة إلى السيارة دون شراء أي
شيء فقد اعتادت على اقتناء تلك الأشياء الخاصة بالمرأة من بائعات
سيدات.

مرّ أكثر من عقدين على أزمتها وفي أحد الأيام المشرقة أطل نهار
بعثَ في الأسواق كواكبها المنيرة..

أشرفت المتاجر بجنديّات من سحنة الأرض تشرف على دوران
عجلة الاقتصاد.. فتيات حازمات عازمات يُحيين زمن الأسواق التي
تنبض بالحياة..

إنه عهد أطل ليطلق الكثير من السيدات الروتينيّات من أسر خجل
(الأخذ والعطاء) مع رجل بائع في محلات خاصة جدا بالسيدات..
تحررت الزوجة الروتينة من تبعية الزوج السائق، فقد تطورت
المواصلات في المنطقة..

تطلب (تاكسي) عبر النت.. تخرج من العصر تبلغه :

- رايحة إلى السوق، سأعود بسرعة..

تخرج ولا تعود كعادتها بسرعة..

سيدة روتينية في سوق الثلاثاء.. في (المول)..

تدخل المحلات.. صارت الخالات في سوق (الثلاثاء) تعرفها
والبائعات في (المولات) يألفن رؤيتها كلما دخلت محلا أقامت فيه..

أحاديث نواعم..

سوالف لا تنتهي مع الصبايا القائمات على المحلات ، وربما قد
تتسبب في أزمة تجارية من تعطيلها للبنات عن عملهن بالحديث
والمزح واحتفائهن بها :

- يا خالة تفضلي مرحبا ألف..

- يا خالة اجلسي وانجيب لك طلبك..

- يا خالة أنت مغربية؟ أنت تونسية؟

أنت من فين بالله عليك؟

- تفضلي قهوة.. تفضلي تمر..

- تفضلي موية

- شوفي هذا الموديل يناسبك يا خالة..

- ما شاء الله عليك يا صبايا رددتن فينا الروح ، أحبيتن الحياة من جديد..

- أنت يا بنتي من فين؟ وأنت شكلك عسيرية ولهجتك نجدية!!

زوجة روتينية تخرج إلى السوق ولا تعود بسرعة وجدت ضالتها مع سيدات وصبايا أعدن الحياة إلى ما كان يسمى حياة.

تدرك أنها تأخرت.. تنهال عليها مكالمات الزوج المنتظر عند حافة البلكونة..

- أنت بخير؟

أنت دُخْت في السوق؟ أنت باقية على قيد الحياة؟!

تطلب (تاكسي)..

تتذكر قول جدها :

(إيه يا بنتي أنسا كينسوقو ياكلوهم أديابا) فتسأله وهي طفلة :

علاش يا سيدي؟!

يرد عليها :

إذا خرج النسوة إلى السوق نسيين الوقت وهن في سؤالف لا تنتهي
إلى أن تغرب الشمس وتخرج عليهم الذئاب من الغابة وتفترسهن عند
عودتهن ليلا.

أين أختي..؟

رذاذ مطر..

عَطرٍ يُضفي على أسحار (ثُهامة) مزيدا من العذوبة..

أريج عطر يتسلل مع نفحات شجرة (مِسْك الليل) و(الياسمينة) التي
قَدِمت معي من سهل (مُتِيجة) تغزوان (بلكونة) غرفتي تُوهمانني
بشيء من الصبا رغم ثقل الثلاثة عقود من الزمن التي مرت عليّ
وعليهما في التربة التهامية..

لحظات ويؤذن (مُطوِّعنا) للفجر..

سأفرغ من عملي (أونلاين) مع طلاب في أرض أشرقت شمسهم
بساعات..

ها أنا أقرر النوم بعد صلاة الفجر مستبشرة بعطور الشجر التي تغزو
غرفتي تُخدرني نوعا ما مع نوبة الحساسية..

استرخاء ، فغفوة نحو نوم عذب.

صوتها هناك في (الصالة) يَرُدُّني إلى اليقظة.. كأنها تبكي : أنين..
قرقعة.. حركة مخلوق تائه..

تقتحم غرفتي.. تسحب أغطية الفراش.. يداي مثقلتان من مَقَت نعاس
فظ.. كأنني في سقوط حر نحو الهاوية.. حفيف الشجر يزيد من كل
ذلك كأنه يُوشوشني بكلام دون نهاية لمخلوق يهذي..

إنها حازمة عازمة.. تسحب الغطاء من علي وجهي تُعَنِّفني قليلا عنفا
عذبا تُبُخُ أنفاسها في وجهي.. أقلق نومتي.. لعلها ترغب في قضاء
حاجتها.. أقوم لأتأكد.. أخذها إلى مكانها المؤلف..

لا ترغب في ذلك..تتبعني..أخمن: ربما إنها جائعة وقد مَلت من أكلها
المُصنَّع.. أعطيتها من زاد البيت ، قطعة دجاج..حليب..جبنة..لا
ترغب في ذلك وتأبى الأكل..بُحِّدق في وجهي..تصيح..تئن تهيم في
كل زوايا البيت..في بيت الدرج..(الفرندات) السطح..الغرف..إنها
تبحث عن أمر ما..أنتبه (للأهم).. ليست هنا أدركت أنّ (شيخة) في
بحث مُتعبت عن شقيقتها التي اختفت منذ منتصف الليل..

كنت أعمل على (اللابتوب) وكلاهما تُشاكسني وتجلس على
(الكيورد) ، فتارة ينقطع الاتصال مع طلابي ، وتارة أخرى يضحك
الطلاب معي على فضولهما وتحديقهما
في الشاشة..

فجأة اختفت (للأهم)..بحثنا وبحثنا سويا في أرجاء البيت..في
الحديقة..في الجبل الملاصق للعمارة.

لا أثر (للأهم) ، لعلها توغّلت في الجبل ولدغتها عقرب أو حنش
فهاكت..حزنت كثيرا..(شيخة) فقدت أختها..حضنتُ شيخة وعدت
إلى النوم أواسيها عن فقدان العزيز الغالي..

فجأة شيء ما يتحرك خلف الستارة التي تنسدل وراء الكنب..أقوم
مفروعة..أرفع الستارة وإذا بـ(للأهم) تَنمطى.. تستيقظ من نوم عميق
(مُطيشة) لامبالية بالكل..تقفزُ (شيخة)..تتبادلان حركات توجي
بالقبلات ، وتصدران أصواتا كأنها عتاب ، ثم (تحاضبتا) ونامتا من
جديد في ملكوت من الاطمئنان والونس..

نوم شقيقتين تنعمان بالحب والعاطفة الصادقة..

بكيٲ..بكيٲ كٲيرا لأخوة هرتين..انتابني شجن عميق وشعور
بالوحدة والفقد لشقيقتي التي غادرتني منذ شهر؁ ورَسخت في ذهني
وقلبي من جديد قيمة سرمدية هي شارة :

(الأخ مفقود..

مفقود..

مفقود)..

مدارسُ تعبرني

لم تكن جلسة قهوتي هذا المساء في البلكونة بليدة كما اعتدتها منذ ١٨ شهرا..

جلسة قهوة مسائية بليدة حين أطفئت أنوار (مدرسة شمسان الابتدائية والمتوسطة) جراء جائحة (كورونا).

منذ ١٨ شهرا أوصدت أبوابها ، وأطفئت أضواؤها ، وسكّنت هناك عند زاوية الرصيف تستقرئ في صمت مهيب هجران الطفولة.

في جلستي الروتينية هذا المساء بعد المغرب في (بلكونة) مكثي المطلة على المدرسة لاح لي بريق من خلف الستارة التي كنت كل حين وحين أطل من خلالها على الشارع العام وعلى المشاة القليلين من الوافدين الذين يعبرون الطريق.. أنوار تنبلج من السديم الذي يغشى سماء (أبها) بعد كل عصر.. أضواء بحلة ضبابية تتسلل من تراكم الغيم وركام بخار الماء الذي يرسم ملامح المدينة الحالمة.. أطل.. حركة دؤوب لعمال يعدّون الفصول التي تنتظر تلاميذها بعد كل ذلك الغياب الذي أخرج أصداء الطابور الصباحي.. أنوار استلت روعي التي غمرها حداد رهيب في نهاية هذا الصيف الذي نعي إليّ هلاك الأهل في حرائق (الجزائر) وأتلف موروث الأسلاف هناك في جبال التين والزيتون..

نور توغل في صميم حزني يستل روعي التي انطمست في حزن حديدي صلد طوقه قرار نهاية صيفٍ أنهكني بأوجاعه.. أهل هالكون

في الـهيب ، ورابطة (حالية لبن فاسية) هناك في المغرب ، وإخوة
قاسمئهم ثدي أم ترقد في ثرى مدينة (فاس)..

علي أن أعيد النظر في صلة الرحم بها وبهم..

نهاية صيف أرهقتني.. أرض هناك محروقة ، وإعادة نظر في
علاقتي بإخوة رضاعة في المغرب..

نور مدرسة (شمسان)، وأي نور الليلة يجتثني من كل هذا الحزن ،
يعدني بأصداء طابور صباحي يذكرني أن الحياة ما زالت هنا ، وأن
طفولة ستأتي صباح غد لترد إلى الأمل حلمه..

أنوار مدرسة (شمسان) هذا المساء.. فصولها تترقب مواكب التلاميذ
يُزقون إليها بعد غياب ١٨ شهرا..

أصداء الطابور.. آمال الطفولة تنبثق من حلقة الجائحة التي أنهكت
حتى الدفاتر والأقلام. في الصباح الباكر ستعبرني مدرسة (شمسان)
من جديد.. تخترق ستائر غرفتي بضوء التلاميذ.. بأفئتها.

ترددات الطابور ولازمة النشيد الوطني سيعودان إلى غرفتي..
سيعود صوت المدرسة جليا كما كان منذ قدومي.. حبل سرّي يربطني
بكل المدارس التي عبرتني في الجزائر.

غدا سيعود التلاميذ إلى حضن مدرستهم ، وأعود إلى ذكرى
الطباشير يتمازج مع أناملي يثير حساسيتها قبل عهد السبورة
المغناطيسية..

ذكرى خشونة الطباشير تشق بناني.. يتمازج الدم من أناملي مع
الطباشير الجاف.. يصنع نسغا شكّل هلامية معلمة مُعنقة ويسطر
ماهيتها.. معلمة تترقب في (بلكونة غرفتها) أن تعبرها مدرسة بعد

سویعاتٍ عند انقشاع السدیم صباحا حین تفتح مدرسة (شمسان)
بوابتها للتلاميذ هذا الصباح..

بقايا معلّمة

(والمخوّل زاد خوّلُ

عمّها من شامها حتى يمئها)....

هكذا كان يُرَدّد تراويلَ المطر حين أطل من جبل (تهلّل) على
(تهامة)..

كان مستعجلا ، فقد بشره السديم والغيم هذا الصباح بوعد المطر في
التهائم..

كلم رفيقته.. أمرها بالاستعداد كي تُثمّ معه ، فهو مثل ذلك الشاعر
العتيق المتيم به، الذي (يخاف أن تُمطر الدنيا ورفيقته بعيدة
عنه).. استعدّت.. جهزت حاجاتها المعتادة للنزول إلى بيتها الريفى. هو
دائما مستعجل للقاء تهائم، بينه وبينها مواقيت المطر ورحلة قطرة
الماء نحو سيل وادي (ريم) ، لكنها زوجة روتينية، فمهما جهزت من
أغراض فحتما هناك أغراض تنقصها..

بسرعة انتحارية ، صيحات محرك مركبته جنونية.. يتوقف عند
السوبرماركت:

- يالله بسرعة بسرعة نلحق السيل..

- طيب طيب..

هي تسايره ، لكنها تعلم أنها ستتأخر ككل النساء..بينها وبينه مرفأ
وضفة يلهو على حوافها زبد السيل لا تقدر على العبور إليها..
هي سيدة روتينية بسيطة ، همها نواقص المطبخ..

دخلت تجوب مختلف أقسام المواد الغذائية.. جوالها يصعقها برنات
خاصة برفيقها.. ليست مبالية بكل هذا.. اشترت كل الأغراض التي
سجلتها على القائمة والتي لم تسجلها.. كعادتها أخفقت أن تكون
متحضرة ملتزمة بقائمة وميزانية.. تدفع عربة تروّع منظمة الغذاء
العالمي..

لابأس فكل الزوجات الروتنيات مثلها.. أخيرا ستتوجه إلى
الصندوق..

وهي في طابور الصندوق لفت نظرها قسم هناك لم تعتده في هذا
السوبر ماركت.. أقفلت جوالها الذي لا يكف عن الرنين من السيِّ
المستمطر..

قسم خاص بالأدوات المدرسية :

أقلام..

أدوات هندسية..

ألوان..

حقائب ودفاتر..

الله كم تحب كل هذا !! كم تحب تلك الدفاتر الملساء الصفحات
المحكمة السطور..

اقتنت مجموعة من الدفاتر.. ووضعتها في العربة.. اتجهت نحو
الصندوق لا تعلم لماذا اشترت الدفاتر فقد غادرتها منذ أمد بعيد إلى
(الكيورد) ، لكنها اقتنتها لشيء ما في صدرها..

شيء في صدرها انتشى لرؤية الدفاتر ، ربما بعد كل هذا الزمن من
التكنولوجيا لم تنسلخ من معالم فرحتها : محفظة الطفلة التلميذة..

دفاترها..

مقلمتها..

هي لا تعلم لماذا اقتنت تلك الدفاتر ، لكنها تدرك أنها تشعر بالفرحة..
عادت إلى رفيقها تتساءل : لقد اجتمعنا على عشق قطرة المطر، فهل
يشاركني فرحة دفاتري؟؟!!

امْتِنانٌ ومقدّمُ صداق

(عيد المعلم)

كانت الطالبة في (كافتريا) الكلية تترشّف فنجان قهوة ، وقد اتخذت قرارها بالاستقالة من التعليم.

في خضم الضوضاء والفضاء الذي يملؤه دخان السجائر وأصوات تتعالى بين حديث وثرثرة الطلاب دخل الأستاذ اللاجئ من (البوليزاريو)..

همّ جميع الطلاب لدعوته على فنجان قهوة وسندويش كعادتهم يكرمون ثلة الأساتذة (البوليزاريو) اللاجئين لبلد شقيق :

- أكرم.. أكرم.. يا شباب عندي محاضرة بعد ١٠ دقائق..

هكذا اعتذر الأستاذ من الكل لأنه لمح طالبتة العاتية في الزاوية..

كانت هناك في آخر القاعة بيدها فنجان قهوة ، وعلى الطاولة ورقة انتهت من كتابة أمرٍ ما عليها..

استقام.. افتعل كل أفتعة الإتيكيت.. رفعت رأسها.. قال :

أنت هنا؟ لماذا غبت عن المحاضرة؟ ممكن أجلس؟

- عالسّلامه شيخ.. تفضل أنا طلبت سندويش واش تحبّ أطلب لك..؟

- أي شي اطلبي لي ما تشائين..

تفنّنت الطالبة في الطلب :

قهوة..كبو تشينو..سندويش..رؤايال..كرواسون..عصير..

ملّ فاي..mille feuilles ، فهذا الشيخ (الأستاذ) وقدره عالٍ ، وهو ضيف ولاجئ ، أهله وبلده في محنة.

هي بنت ، لكن ليست أقل شيمّة وكرما من زملائها الشباب :

- صحّه..صحّه..شكرا يا أنسة كثر الله خيرك أنت وطلابي كلهم..

- لا يا شيخ لا تقول هذا الكلام احنا إخوانك قبل أن نكون طلابك وهذا بلدك..

تجراً الأستاذ وانهاال عليها بوابل من الأسئلة وهو يلتهم ما قدمته إليه من لذيذ الأطفمة :

- لماذا صرت تتغيبين كثيرا عن محاضرتي وإذا حضرت لا تهتمين وتذاكرين أمورا أخرى؟

- يا شيخ أنا أحضر للكلية حتى أوقع حضورا وحتى ما يخصمون من راتبي ، وأنا مجبرة على هذه الدورة وما منها فائدة لا ترقية ولا حوافز ، والتعليم في الجزائر مرهق كما ترى ، وهذه استقالتني قد حررتها وغدا أقدمها في المفتشية..وزيادة جاءني الصباح تكليف من المفتش بيومٍ دراسيٍّ أقدم فيه بحثا عن الهمزة..

شرحت له كل شيء ، وهو ينصت باهتمام كبير..وراح يعظها

ويشرح لها قدسية رسالة التعليم وكم هي ملائمة للمرأة

و...و...و...المهم أنه يحاول أن يقنعها بعدم الاستقالة..

أخذ الاستقالة ومزقها وقال لها :

- يا آنسة أنا ملزمٌ بكل الأبحاث المطلوبة منك ، المهم ابقي في الكلية
وأنهي دورتك ، وبعدها فكري في موضوع الاستقالة..

في الغد لم يكن لديه جدول دوام ، لكنه قام مبكراً واختبأ خلف شجر
الصنوبر عند الرصيف المجاور يترقب نزولها من الباص.. ناداها
بصوت خافتٍ حتى لا ينتبه إليه الطلاب.. التفتت إليه.. أشار إليها
بمجموعةٍ من الأوراق أخفاها بعناية في جريدة وقد غاصت عيناه في
طوق من الهالات السوداء من شدة السهر على البحث..

- كصَبَحْتُ شيخ؟.. ما نَقَرَوْتُشَ اليومَ عندك..

- فعلا ما عندي محاضرات اليوم لكن جيت حتى أسلمك البحث..

- واش من بحث؟

- بحثك في الهمزة ، المهم لا تستقيلي حتى تخلص دورتك.

- يكثرُ خيرك.. ياللهُ أفكرُ في الموضوع..

أخذت البحث ، وهي تتصفحه وجدت قصيدة غير مكتملة داخله ولم
تكتمل إلى يومنا هذا.

لم أجد ما أقدمه هدية لمعلمي - في يوم المعلم - بعد أكثر من ٣ عقود
إلا هذه الأوراق التي ما زلتُ أحتفظ بها امتناناً له. لكنه في حقيقة
الأمر ربما هو كان يعتبرها مقدّمَ صداق ، فهو شاعر (تهاميّ المعيّ
عسيري) ولا يملك إلا :

كلمات..

كلمات..

كلمات..

لم أفقه حديثه..

تقابلنا صدفة هناك في إحدى إجازاتي في ديار أهلي..

كانت ساحة (كنيدي) وما حولها تضحّ بصخب الحي العتيق حيث يتعارف كل الناس.. ساحة تصنع الحياة كعادتها من ضوضاء المشاة والباعة المتجولين والمصلين المتدفقين من بوابة (مسجد الخلفاء الراشدين) بعد صلاة العصر . كنت أقف عند النصب التذكاري (البرونزي) حيث كُتب اسم الساحة.. في مواجهتي الانحدار المفاجئ لشارع (بوقرة) الذي ينتهي بمشهد (بانورامي) لخليج المدينة والميناء..

فجأة رجل في عقده الثالث مفتول العضلات بشوش القسما
يعترضني :

(بونسوار)

- و عليكم السلام ردّدت..

- الله كم تمنيت لقاءك كلما عدت للحومة (الحي) في إجازتي..

تداركت أنه يعرفني ، لكن أدبيا ومجاملة لم أسأله من هو؟

- ألم تعرفيني..ألا تذكريني؟!!

- كلا عرفتك لكن ملامحك تغيرت عني ربما نظري أو أنت كبرت كثيرا..

- أنستى أنا (السعد) ،

لسعد تلميذك في مدرسة (حديقة الساحل) عند مقرّ الإقامة الرئاسية
(جنان الميثاق) هنا خلف بيتكم..

- لسعد في فصل (إعادة إدماج التلاميذ المغتربين) ،

أنا لسعد الذي لا يتوقف عن أكل (الشكولاتة) في الفصل..

- الله يا ابني كم تمضي الأعوام بسرعة !! وما عمك الآن ؟

- يا أنستى هاجرت إلى الولايات المتحدة وأنا باحث ومهندس في
تقنية (النانو) وما زلت ألتهم الشوكولاته..خذي قطعة هاهي تلطخ
جيبى وسبب خصام زوجتي لي دوما..

- الله يبارك..الله يبارك ، لكنك هاجرت كما هاجرت كل الأدمغة من
بلدك. أذكر أنك كنت من الأوائل على مستوى الجمهورية في شهادة
البكالوريا..

وماهي تقنية (النانو) يا ابني؟

شرح (السعد) يشرح ويشرح ويوظف مصطلحات (تكنولوجية) ثقيلة
، تارة يحاول تبسيط الأمور لي وتارة أخرى يسترسل تلقائيا في
الشرح بلغة تطبيقية دقيقة التخصص..

أحاول مجاملته بالتظاهر بالفهم ، ثم أموّه الأمور بسؤاله :

ما شاء الله تزوجت ؟ وهل لك أولاد؟!!

يجيبني ثم يعود إلى الحديث عن إنجازاته ونجاحه هناك بنفس دقة
المصطلحات واختصاصها في عالم الرموز والأرقام وعلى ملامحه
غبطة الطفل الذي يبشر أمه بنجاحه..

ثم أفصحت له عن جهلي بما يحدثني به :

- شوف يا وليدي ، شرفتنني بنجاحك وأنت تلميذي الصغير ، لكنني لم أفقه شيئا مما تقوله من هذا العلم الذي برّعت فيه..

- (مَعْلِيْشُ مَعْلِيْش) أنستي سَابَسِّطْ لك الأمر..

- لا يا ابني لا تتعب في ذلك فلن أفهم أبدا هذا العلم المُجَرَّد المُعَقَّد لـ(النانو) ومجالاته..

- سبحان الله يا (شِيخْتِي) كنتُ طفلا وكنت لي موسوعة بعلمك ، ولم أكن أعلم آنذاك شيئا ؟ وكنت أو من يقينا أن معلمتي تعرف كل شيء!..!

- سبحان الله يا ابني آية الله في هذا المُعَلِّم..

كنتُ بيدر العلوم لك ، وأنت تلميذي الصغير ، واليوم صرت تكسب علما لا يفقهه مُعَلِّمك..

سبحان الله بركات من الله أن يرتقي التلميذ عاليا جدا بعيدا عن مَنْ كان مصدر كل العلوم في نظره (شِيخُ لَمْسِيْدُ اِنْتَاغُو)..معلم مدرسته.

إحدى المساءات عند ساحة (كينيدي) في حيّ العتيق (الأبيار) أعالي العاصمة الجزائر..كنتُ ذكرى معلمة لم تفقه حديث تلميذها الصغير الذي كبر كثيرا كثيرا في عمره ونبوغ علمه.

(من مذكّرات معلمة)

جُحَّة بَرِيئة

1- إلى أعلى الربوة..

أتوغل في الممر الذي تنسجه الأشجار الفارعات من الفلل المتراصة
على حاقتي العقبة المؤدية إلى أعلى الربوة..

ما أجمل تشكّل الأقواس السندسية التي تحجب السماء !!

أمشي مستحثة خطاي بحذر لأنفادي موائع ثقلتها عصافير الربيع
وهي تحضن أعشاشها بين أغصان الشجر.. ثقلتها دون سوء نية..

2- مدرسة حديقة الساحل..

ها أنا منذ أسبوع استلمت نقلي في تخصصي الجديد (إعادة إدماج
أبناء المغتربين) في الحي الذي أقطن فيه أعلى الربوة خلف بيتي.

أصل إلى بوابة المدرسة.. أكاد أختنق ككل يوم من غبار الطلع الذي
يتناثر عليّ من حدائق الفلل التي أعبرها..

يفتح لي الباب السيّ (ازواوي) حارس وبستاني المدرسة..

3- السي ازواوي :

- عَسَلامة يا بنتي الله يشفيك قلت لك أكوي وثحّمي تبراّي من هاد
الضيقة..

- كَيْصَبَحْتَ عَمِّي الْحَاج؟ لَا بَاسَ هَذَا مَاشِي ضَيْقَةً ، حَسَاسِيَّةَ بَرَكَ
مِن الْوَرْدِ وَزَهْرٌ تَعُ اشْجَرُ

- اللّٰه يَشْفِيكَ يَا بِنْتِي شَوْفِي رَانِي خَلَيْتُ لَكَ حَقَّكَ مِنَ الْخُضْرَةِ
وَالفَاكِيَّةِ تَعُ لِبَحِيرَةٍ.

السِّيَ اَزْوَائِي حَارِسٌ وَبِسْتَانِي الْمَدْرَسَةِ..مَعْطُوبٌ حَرْبٍ مِّنْ قَدَامِي
الْمَجَاهِدِينَ..بَطْلٌ مُحَارِبٌ بَاسِلٌ ، وَمَزَارِعٌ بِالْفَطْرَةِ كَكُلِّ
الْجَزَائِرِيِّينَ..يَحَاكِي الزَّرْعَ الَّذِي يَغْرِسُهُ كُلُّ تَلَامِيذِ الْمَدْرَسَةِ فِي
وَرَشَاتٍ مِّنْهَجٍ (دِرَاسَةِ الْوَسْطِ)..يَعْتَنِي بِالْمَرْبَعَاتِ الزَّرَاعِيَّةِ إِلَى أَنْ
تَنْضِجَ الْخَضَارُ وَالْفَوَاكِيهِ وَالْوَرُودُ ثُمَّ يَقْطِفُهَا وَيُوزِعُهَا عَلَى الْمُعَلِّمِينَ
وَالْمُعَلِّمَاتِ..

- كَثْرُ خَيْرِكَ بِقَيْتِكَ بِالْعَافِيَةِ نَاخِذَهَا كِتْمَلُ الْخِدْمَةِ..

كِعَادَتِي كُلَّ صَبَاحٍ أَصْعَدُ إِلَى الطَّابِقِ الْأَعْلَى فِي الْمَدْرَسَةِ لِأَتَنْفَسَ
مِلءَ الْهَوَاءِ حَتَّى تَزُولَ عَنِّي نُوبَةُ الْحَسَاسِيَّةِ..

4- جِيرَانٌ مِّنْ نُّوعِ خَاااa

أَطْلُ مِّنْ أَعْلَى الرُّوَّاقِ الَّذِي يَلْتَفُ حَوْلَ الْفُصُولِ مِّنَ الْجِهَاتِ الْأَرْبَعِ..

يَالَهُ مِمَّنْ مَشْهَدٌ لِحَيِّ (الْأَبْيَارِ) الشَّاسِعِ أَعَالِي الْعَاصِمَةِ (الْجَزَائِرِ)!!

مَا زَالِ الْحَيِّ يَحْتَفِظُ بِرُؤْنِقِهِ مِنَ الْبَسَاتِينِ الَّتِي تَحِيْطُ بِالْفَلْلِ ، وَهَاهُنَا
هُنَاكَ (حَدِيقَةُ الصَّنُوبَرِ) ، وَشَرْقًا أَعْلَى الْهَضْبَةِ الْمُقَابِلَةِ لِلرَّبُوعَةِ شَرْفَةِ
(سَانَ رَافِيْلِ) الْمَطْلَةُ عَلَى الْغَابَةِ وَعَلَى الْمِينَاءِ..

الْأَبْيَارُ حَيِّ الْعَتِيقِ الرَّاقِي يَجْمَعُ كُلَّ الْمَفَارِقَاتِ : غَزْوُ الْأَسْمَنْتِ
الْمَسْلُوحِ وَالْبِنَايَاتِ الَّتِي تَفُوقُ ١٣ طَابِقًا ، وَزَحْمَةُ السِّيَّارَاتِ وَالْمَشَاةِ ،
لَكِنْ فَجأةً إِذَا غَصَّتْ فِي سُورِ عِ الْخَلْفِيَّةِ يَفَاجِئُكَ رُؤْنِقُ الْفَلْلِ

بأنماطها المورسكية والفرنسية والهدوء واريج (مسك الليل وسُلطان الغابة ونوار لعُشبية وورد القطيفة)، فتعود لك ذاكرة الأحواز وسكان أهل "الفحص".

في آن واحد توجعك مرارة التمييز العنصري الذي مارسه المستعمر الفرنسي حين رحل سكانه "الفحص" وجعله حكرا على الأقدام السوداء من المستوطنين الفرنسيين.

أشعر ببعض الانشراح في صدري..أتنفس بسهولة أكثر..أطل من الناحية الأخرى للرواق..هاهو قصر الإقامة الرئاسية (جنان الميثاق) في الواجهة المقابلة لبوابة المدرسة.. إنه موعد خروج الرئيس (لمين زروال) سابقا.. رئيس يهوى المشي..هاهو يقطع حديقة القصر إلى الباب الرئيسي ليركب السيارة وكعادته يرفع يده ويحيينا من بعيد..

يسارا نحو رواق المخابر أطلّ على السفارة الروسية حيث يلهو السفير قليلا مع كلبه (الدوبرمان) كأنه يدربه ، وإذا انتبه إلى أحد المعلمين يطل انحنى قليلا ورفع قبّعته للتحية.

إلى زاوية الرواق عند قاعة الموسيقى إطلالة يومية على مسبح السفارة البلجيكية ومنظر وزّة السفير وصغارها تسبح متبختره ، وهو يجلس على الأريكة يحيينا بشيء من البرستيج..

إلى البعيد قليلا خلف الملعب قصر (الحاج جرار) مقر القنصلية الأسبانية وخيار الشباب يتراصون مزدحمين عند الشباك لطلب التأشيرة يدفعهم حلم الهجرة نحو بلدان الـ(شانغن)..

أخيرا مرت نوبة الحساسية بسلام ، يضيق صدري ويزيد اتساعا.. يضيق حين ألمح من بعيد الأسلاك الشائكة هناك على أسوار السفارة الأمريكية ومركزها الثقافي تبرز من الغابة التي تحف نهج البشير

الإبراهيمي.. وينفرج صدري حين يتمازج العلم الأخضر الذي
يرفرف على بيت السفير السعودي مع زرقة السماء عند منعرج
الطريق الذي يفصل بينهما.. وينفرج صدري مرة أخرى لمشهد
الخليج هناك ، حيث تستحم زرقة البحر في خضرة (حديقة الحامة
حديقة التجارب الفردوسية) يطل عليهما جبل (الخِشْنَة) شرقا في
كبرياء متوغلا في زاوية الخليج ناصعا ببياض ثلج الشتاء المنسحب
عند عتبات ربيع البحر الأبيض المتوسط..
تشد انتباهي خربشة هناك عند قاعة ورشة التكنولوجيا خلف أحواض
النرجس والياسمين الذي زُين بها الرواق..
أهرعُ نحو صوت الخربشة..

كانه طيف يستتر خلف العمود!!

يا ترى ما هذا الشيء الذي يتحرك؟!

5- التلميذة (ثَبْرُ)..

ما زال طيفٌ يتحرك خلف العمود..

أقترب منه.. إنها التلميذة (ثَبْرُ) بنت الفراشة (للا جَويدة)..

أفاجئها.. تطأطئ رأسها وتنزل الدرج كقصف البرق تتأبط شيئا تدسه
بحذر.. أتساءل لماذا لم تقل لي صباح الخير (أنيستي) كعادتها!!

دقّ الجرس للحصة الثانية بعد الفسحة..

ها أنا في الفصل الخاص بأبناء المغتربين..

تلاميذ من الطبقة المخملية أبناء دبلوماسيين و أكاديميين وباحثين
يعودون إلى الوطن.. فصلٌ بمستويات مختلفة.. أدمجنا معهم التلميذة

(ثَبْرٌ) بعد أن ضاعت عليها السنة جراء صدمة عنيفة قطعتها عن الدراسة حين اغتال الإرهابيون والدها الشرطيّ أمام عينيها والملاّ.. أدمجناها في القسم الخاص لتستدرك ما فاتها من الفصلين الرابع والخامس..

غدا يوم المرأة 8 مارس عاد التلاميذ للفترة المسائية بقي منها حصة الأشغال اليدوية.. هاهم يُخرجون أعمالهم كلهم.. تصيح البنت (هادية) بنت الجنرال والأستاذة الجامعية.. تبكي تنهار..

6- أنيستي سرقوا مني هدية ماما..

كل طفل صنع هدية لوالدته بيده.. الطفلة (ثَبْر) كانت الوحيدة التي لم تتمكن من شراء الألوان والورق الملون ولوازم الأشغال اليدوية ، وقد اتفقت مع زملائها ليساهموا كلهم لشراء ما يلزم الهدية وإنجازها لأن (ثَبْر) كانت ما تزال تحت وطأة الصدمة التي تُسبب لها باستمرار تشنجا ليديها حين أمسكت بمسدس أبيها إثر سقوطه قتيلا لتدافع عنه فلم تقدر.. ولا شعوريا بقيت تلوم نفسها لأنها لم تتأر لوالدها فتصيبها النوبة وتتشنج يداها تصوبهما وكأنها تمسك مسدسا متأهبة لإطلاق النار على القتلة..

البنت (هانية) ما زالت تبكي وتبحث عن هدية والدتها.. تداركتُ منظر (ثَبْر) وهي تختفي خلف العمود ، وتخفي شيئا تحت منزرها.. حدقتُ فيها فانهارت بالبكاء..

انتهت الفترة المسائية.. غادر كل التلاميذ الفصل.. انزويت بها دون أن أسألها عن شيء.. بادرتُ في الدفاع عن نفسها فأسكتها.. قلت :

- أنت يا (ثبر) بنت الشهيد ، ولا أقول لك شيئاً آخر.. ستلقين بابا يوماً
فهل تستطيعين رفع رأسك أمامه ؟ وصمتت..

طأطأت رأسها واعترفت وبكت..

رفعت رأسها وقلت :

- بنت الشهيد لا تطأطي رأسها، لكنها إذا أخطأت ماذا تفعل؟

ردت : سأعترف لـ(هاديا) وأرد لها هدية والدتها وأخبر كل زملائي
بذلك..

في الغد دون أن يعلم التلاميذ باعتراف (ثبر) قدموا لها هدية
لوالدتها..

انهارت بالبكاء بكاء وبوح طفلة بنت شهيد الواجب قالت :

- أخطأت في حقكم كلكم وأنتم تعتبرونني بطلة بنت شهيد..

سرقتم لكنني سرقتم هدية لماما لأنها تبكي منذ أن قتل الإرهابيون
بابا..ماما تبكي..تبكي.. ولم أرها تبتسم منذ مقتله..سرقتم فقط لأرى
بسمتها وفرحتها من جديد..

سرقتم هدية لماما لأراها تفرح..

تفرح.. تبتسم فقط..

(من مذكرات مُعلمة)

لا يا صديقاتي الصغيرات..

غسق السحر..

الدُّجى يَأْسِر الظل عند منابت الأرض..

آية الليل تهيم بي إلى ملكوت خالقها لأعبر إلى نور النهار المُبصر..
أتمسك بأية النشور.. هذا الشغف وُلد لديّ فرق توقيت ، فلم أضرب
عن الليل صفحا كليا ، ولم أتنازل عن آية النهار..

عند الشروق أطل من سطح بيتي على المدائن والقرى التي تستعد
لتصنع ليلا لنومها..أبحث عن العيد..

أصغي إلى صمت البيوت..أحدّق في نوافذها النائمة..في الشوارع
الخاوية التي لن يأتيها الأطفال لاقتناء العيديّة..

أطلُّ..أبحث عن العيد.. هناك في الزاوية بعض القطط تعبت
بحاويات المهملات..بعض العمالة الوافدين عند زوايا الأرصفة
ينسجون عيدا افتراضيا مع أهاليهم عبر الجوال..

متأكدة أنا أنني لست الوحيدة التي تبحث عن العيد..جارتني
(القحطانية) الثمانينيّة هجرت شفق بيدائها مرغمة تسكن في العمارة
المقابلة تحرك ستارة النافذة تبحث عن صباحات العيد مثلي.. متأكدة
أنا أن جوالي سيرنّ بعد قليل لتعطيني أخبار الحي كعادتها..

خالة (هدّبا) القنويّة التهامية في السطح الملاصق لبيتي لم تشاطرني
محاكاة غيم (أبها) هذا الصباح..فقد نزلت من غرفتها المفتوحة على

السماء خوفا من شدة البرد..المدينة خلّدتْ إلى النوم عند الشروق،
وتركتني مع العيد وحيدين..

أتوغّل داخل الشقة نحو المكتبة..أسترخي لعلمي أحظى بسُوِيَعَاتٍ من
النوم إلى الظهر..أذان الظهر أقوم..تمارسني تفاصيل الروتين..
أصارع كل الأرق من فرق التوقيت بيني وبين المدينة النائمة..

يمضي العصر بساعة فتتسلل إلى سطحي - حيث أمارس صلتني
بالشمس والغيم والمطر - تتسلل رائحة أطباق (الديليفرى)..سيارات
المطاعم تقف عند كل عمارة..إنها تباشير استيقاظ الحي، وهاهنّ
صديقاتي الصغيرات يطلن عليّ من حلوق العمارات الثلاث
الملاصقة لسطح بيتي..(ريم..لينا..سارة وأفنان..)..

أنتشي..سيستيقظ العيد شيئا فشيئا مع استيقاظ الصغيرات :

- يا خاله..يا خاله..إيش ما ناديتنا؟

- ما أبغى أز عجن..

يمامات جميلات ، لكنّ أخفين ملامح بمساحيق أمهاتهن ولطن
وجوههن كالعادة ب(الماكياج)..

- يا خاله أنا أحبّش..

- يا خاله أنا أحبّش أكثر من أفنان..

- الصغيرة (ريم) أكثر دهاء :

- أنا أحبّش أكثر من (الأيسكرىم والثوفي) ، وما عندي كورونا..

كعادتهنّ كل هذا التودد من أجل أن أسمح لهنّ بالعبور إلى سطحي
للتمرّج على المرجيحة..

- طيب..طيب..يالله إنزلن..

- دَقِينِي يَا خَالَهُ..

- لا أنا الأولى.

- لا أنا قبلها..

مع شقاوة جاراتي الصغيرات تَدْبُ الحياة شيئاً فشيئاً عند اقتراب
المغرب..تلتف حولي سارة وريم :

- يا خاله أبغى عصير..

- يا خاله يا خاله عندك شبسي؟؟

كعادتهن من السطح يتسللن إلى المكتبة.. ينثرن الكتب.. يقبلن في
الألبومات..

في موكب مباغت يهاجمني في المطبخ :

- مَنْ هِي تِيَهُ يَا خَالَهُ هِي حَلْوَةٌ..وَمَنْ هِي تِيَهُ وَمَنْ هِي تِيَهُ..؟

أوجّه كلامي إلى الأكبر منهن (أفنان) و(لينا) اللتين توشكان على
تخطي عتبة الصبوة..

- هؤلاء صديقاتي فرنسيات وأمريكيات وسويسريات..

تصرخ إحداهما في الصغيرة (ريم) :

- قلت لَشْ فِي أَبِهَا لَا عَاد تَتَكَلِّمِينَ مِثْل جَدَّتِي..

ريم الصغيرة متعلقة بجدتها وتتكلم لغتها الأم..لهجتها التهامية وهي
سَمِيَّة جَدَّتِهَا (هَدْبَا) ، لكن في المدينة يقتضي الأمر أن تغيّر أختها

الكبيرة (أفنان) اسمها إلى (ريم) وحين تناديه ريم يلتبس الأمر على الصغيرة (هدبا) فلا تجيب..

يحيط بي جاراتي الصغيرات..أيادٍ صغيرة تلوي عنقي في كل اتجاه..يتطاير فنجان قهوتي من يدي في أرجاء المطبخ..

- يا خاله أبغى ياتي شعري أشقر مثل تيه..

- يا خاله أبغى بشرتي بيضا مثل تيه..

- يا خاله علمينا كلامهم أبغى أكشخ بالفرنسي..

الصغيرة (ريم) :

- يا خاله إذا ما أكلت (شبسي) تاتي عيوني زرق مثل البنوتة اللي في الصورة ؟

- تعالين يا حبيباتي أقصّ عليك قصص الجمال..

توجهت في مخاطبتي إلى الأكبر منهن :

- هؤلاء السيدات الأوروبيات والأمريكيات عشن هنا لفترة طويلة ، واكتشفن الجمال العربي ، وحين رحلن من هنا فمنهن من كتبت كتبا وقصائد في جمالكن وقلن بإجماع :

نحن جُبنّا العالم ، فلم نرَ جمالا كجمال المرأة العسيريّة والنجدية وطعم لهجتها ورقتها وحُلُقها..

يا صديقاتي الصغيرات ، لو أنا قلت لكنّ : أنتنّ جميلات بلون بشرتكنّ الحنطية وعيونكنّ الحور وشعركنّ الشلال الذي يسكنه الليل وحُلُقكنّ ورقتنّ لقلتنّ : شهادة خاله مجروحة لأنها تحبنا..

أمضيتُ ساعةً وأنا أقنعهنّ بالجمال العسيريّ والنجديّ والجمال
العربيّ وما كتب عنه من قصائد.. أبدینَ نوعاً ما قناعاتهنّ
بقناعاتي.. وحين صمتُ سألتني أكبرهن :

- يا خاله لو أحط صبغة أشقر ذهبي فاتح يطلع شعري مثل تية؟
وصاحت (ريم) الصغيرة تبكي :

- أبغى عيوني تاتي خضرا مثل تية وهي تمسك صورة البتوة
الفرنسية ، فصحت فيهن :

لا..لا..لا..لا صديقاتي الصغيرات ، لا أستسيغُ كلاماً مثل كلامكنّ
ولهجتكنّ الأزديّة العربيّة الأصيلة..

لا..لا..لا..يا صديقاتي الصغيرات..لا أوْمُنُ بجمالٍ غير جمالكنّ..
ابقينَ على جمالكنّ ولسانكنّ وخالقكنّ الرفيع..

الموت وفاءً..

لم تصغ إلى قرقعة باب البيت هذه الليلة ، ربما هي على حواف
الوادي تطارد الخنازير الوحشية التي تعبر (وادي قريش) من جبل
(بوزريعة) المقابل للهضبة وبعض الذئاب والحنشان ، فقد تجمّد
السيل في مجراه ، وغطته ثلوج شهر (ديسمبر) ، وأمسى عبورهم
إلى بساتين الفل سها..

تلك الليلة الشتوية كانت حالكة الظلمة ، ووالدي لم يعد بعد من صلاة
المغرب ، وكان دور والدتي في تحضير عشاء (للأخميسة) جارتنا
العجوز الوحيدة ، فكل يوم يتداول الجارات على إعداد طعامها
ورعاية أمورها..

كانت (أخميسة) دوما تبكي وتنظم أشعارا شحنة تشدوها عند المغرب
تتاجي بها أهلها الذين رحلوا عنها إلى وجهة - ما - لا عودة منها ،
وحين رفضت مرافقتهم تبرأوا منها فبقيت وحيدة..

في تلك الليلة الحالكة تمردت على والدتي ، ولم أقبل أخذ العشاء إلى
جارتنا.. كنت مخرجة لأنه كان طبقا من (الرفيس) ولم تضع والدتي
اللحم عليه ، وكان اللحم وفيرا في قدر المرق..

حين حضر والدي أرغمني كلاهما على أخذ عشاء (للا خميسة) إليها
وهما يتبادلان نظراتٍ تأمرية ، وأخبرني والدي أنها في ذلك اليوم
وبعض الأيام في السنة تمتنع الجارة العجوز عن أكل اللحوم..

خرجتُ مُتردّدة من البيت أحمل الصحن ولم تحضر (ريتا) لمرافقتي
وحمائتي.. أقفز على الشبّوك القصيرة التي تفصل كل بساتين الفل
في (حيّنا بنّ صيام) أعلى (هضبة الأبيار) من أعالي مدينتي المُنتجع
(الجزائر)..

أتوغل خائفة في البساتين من حيوان (الفنك) وزوجته وبعض
صغاره الذين كانوا يتسللون من بستان جيراننا من مدينة (الألف قبة
وقبة) من واحة (وادي سوف) يربّونهم إلى جانب الغزلان والإبل
الصغيرة ، ثم يأخذونهم للمحميات الطبيعية..

لم تظهر (ريتا)..

فجأة مخلوقٌ ضخم يهاجمني.. يعضّني من ساقِي..

أصرخ.. أبكي..

يخرج كل الجيران بالكشافات..

هذه (ريتا) منكبة على الأرض عند قدميّ تملأ عينيها طبقة من
البريق.. تحبس دمعاً لا ينهمر.. تصدر أصواتاً تعبر عن
نحيب.. تقوم.. تمسح برأسها على ساقِي.. تستقيم.. تضع أطرافها على
صدرِي ، ثم تنحني تلعق مكان قضّمها ساقِي..

إنها تعتذر.. تعتذر.. لم تعرفني في حلقة تلك الليلة.. الكل يُوبّخها وهي
مصرة على الالتصاق بي..

تتبعنا إلى السيارة حين أخذني والدي وجارنا الممرض (شيتا) إلى
معهد (باستور) بحي (العناصر) لأخذ إبرة ضد الكلب.. وحين عدنا
أصرت على الدخول إلى (صالة) البيت ، وقضت الليلة كلها عند باب
غرفتي..

قررت (ريتا) بعد تلك الليلة حازمة عازمة مرافقتي كل يوم إلى باب
المدرسة أعلى الربوة في الحي رغم الجو الماطر والثلوج تنتظرنني
إلى أن أخرج ظهرا و ترافقني في الفترة المسائية ذهابا وإيابا..

ذات مساء عند خروجي من المدرسة يفاجئني

جمع من الناس يلتفون حول أمر ما ، تسألُ من بينهم لأجد الكلبة
(ريتا) ممددةً عند مقَدمة سيارة أحدهم..

لقد دعسها وهي تنتظرنني..

أسرعتُ إليها باكية..حضنُّها وهي تحتضر.. تحاول أن تقوم لتلحق
من جديد ساقى اعتذارا.

كانت نظرات قهرتني وفاءً..

هدمتُ أنفاسها ، وارتخى رأسها في حضني وكلانا على ناصية
الطريق..

ناصية وحافة رصيف شهدت مسرعا من الموت وفاءً..

أصغر معلمة في العالم (غِبْطَةُ الضَّادِ)..

يوارب الطفلتان باب غرفته..

يَفرش سجادته..يُكَيِّر..

تقتحمان عليه الغرفة..تجلس أكبرهما إلى جواره..لم تتعدّ بعد سن السابعة ، لكنها في الشهور الأولى لتمدرسها تعلمت بعض هيئات الصلاة ، تُقلد والدها في كل حركاته..

البنيت الصغرى لم تتخطّ الخامسة لا زالت مواظبة على المدرسة القرآنية في زاوية (سيدي محمد الشريف) ب(القصبة) كما تقتضيه الأعراف في المجتمع الجزائري قبل سن التمدرس الإلزامي.. إلى جوار البنيتين يلتحق هرّ المنزل العملاق..

يتمدد باسطاً ذراعيه على مقدمة السجادة يلهو تارة بالخطوط
المزركشة المحيطة بها ، وتارة أخرى يشاكس إبهام صاحبه عند
النشء..

الطفلة الصغيرة تتشبث بظهر والدها عند الركوع والسجود مؤمنة
أنه أطول من كل الجبال وأشجار الصنوبر والزيتون المحيطة بالفيلد
على قمة الهضبة تُردّد كلماتٍ مُشوشة لتكبيراته.. تقلد صلاته ، ومن
على كتفيه تؤمن أن هناك إلى البعيد خلف الجبل المُغمس في خليج
المدينة شرقاً هناك الكعبة والقبلة.

يُسلم.. يسترسل في وجه ابنتيه.. يبتسم.. يمسح على رأسيهما ، فقد
انتظرهما عقدين من الزمن بعد رحيل نجله.

كعادته بعد كل صلاة يتناول المصحف بين صفحاته ورقة بيضاء
كُتبت عليها كل سورة وآياتها كاملة باللغة الفرنسية نطقاً
عربياً.. يتلوها.

إنها الأوراق والمصحف الذي يحتفظ به منذ أن أُلزم بالتجنيد
الإجباري في الجيش الفرنسي في سن الرابعة عشرة ..

مصاحفٌ كانت تُهرَّب إلى الثكنات خلسة عن المستعمر ، ويتولى
القليلون ممن تعلموا العربية تحفيظ القرآن للجنود من أبناء
المستعمرات.

كان هو من أولئك الذين حُرِّموا من تعلُّم لغة القرآن حين أُغلقت
الزوايا وحُوِّلت المساجد إلى كنائس من العسكر الفرنسي ، فحفظه
سماعاً.

مثل كل أترابه كان يتلو القرآن بعد كل صلاة من ذات الصفحات التي
كتبها بالحروف اللاتينية ومن ذات المصحف.

تمدرست البنت الكبرى ، وراح يعلن ذلك شارةً..شارة لمواقبت
يتهجى فيها لغة الضاد أحرفا وإيماناً..

حين يكمل قراءة ما تيسر من القرآن من الصفحة المكتوبة بالحرف
اللاتيني تُقبل مُعلمته الصغيرة بمحفظتها وكتاب القراءة وكراسة
الخط..لقد اشترى لها سبورة صغيرة وطباشير بيضاء وملونة
وممسحة إسفنجية ، وجعل بنت السابعة تُقلد مُعلمها وتعيد الدرس له
كما علمها المُعلم في الفصل..تُلقنه طفلته في كل يوم الحرف الذي
تعلمته..تكتبه على السبورة ثم على كراسة الخط فتعلم كل الحروف ،
وصار يتهجى الكلمات وهي تصحح أخطاءه وتُمسك بيده تقود سبابته
وإبهامه في رسم الحرف على السبورة ثم على الكراسة بقلم
الرصاص ثم بقلم الحبر..

في تلك الأثناء كانت البنت الصغرى تنتبذ ركناً مقابلاً لهما ترسم
بالشخبطة والخطوط والدوائر على الأرض وعلى فستانها..ترسم..
تكتب..ترسخ قصة أصغر مُعلمة تعلم أباهما لغة القرآن..

تصر المعلمة الصغيرة على تحفيظ تلميذها الرجل السور كما
حفظتها في المدرسة بروايات أخرى جديدة غير رواية (ورث عن
نافع) :

- بابا..بابا..قل المؤمنين مآشي المؤمنين..

يُصر التلميذ الكبير على التلاوة كما حفظ سماعاً..
(لرض..المؤمنين..

لأمانة..لإنسان)..

وغيرها دون نطق همزة القطع...

- لا بابا قل (الأرض..المؤمنين

..الأمانة..الإنسان)..

تعلم التلميذ الكبير قراءة القرآن بروايات جديدة من معلمته
الصغيرة..رواية حفص عن عاصم مثلا..

تعلم كل الحروف..صار يقرأ القرآن مباشرة من المصحف ويحلّ
الواجب المدرسيّ مع معلمته الصغيرة تصحح أخطاءه حين يصحح
لها معلّمها ، وحين تعود من المدرسة يُقبل عليها مبتهجا كتلميذ
صغير يقرأ لها المصحف ويعرض عليها كراسة الواجب..تمسك
بالقلم الأحمر تصحح دفتره..تكتب على الهامش جيد..حسن..
متوسط ، وإذا أجاب صحيحا تأتي له بشكولاطة من عند يقال الحيّ
(سي مسعود الإباضيّ)..

المعلمة الصغيرة تتماهى حروفها ، تُبدد عصرا من اضطهاد
الاستعمار لأجيالٍ أحرمت من لغة الضاد.

تذف المعلمة الصغيرة حروفا

يرسم الباء والتاء لمى شفتين لوتنا بلون الكرز..

تقفز فرحا حين يقرأ تلميذها الكبير آية من القرآن..تنتثر فرحة
جدائلها الذهبية إلى السماوات..

تعرج بغبطة والدها ، غبطة حرف الضاد الذي بدد ظلمات الاستبداد.

غبطة حرف الضاد الذي أغلق به والذي باب زمن المستعمر إلى
الأبد ، بابا كان لا يزال مواربا عند هبوب تيار غضبه يفتح كل أن
على وجع حين كان يتلو القرآن من الصفحات اللاتينية..

بأبًا أو صدّه إلى الأبد حين عاش غبطة حرف الضاد...

أبها.. حين بكى الجبل..

- فولكلور مغربي..

أستعير أجنحة فراشة ، وسرج فارس..

أمتطي متون جبل (شمسان) في حيي نحو القلعة ، يدفعني شوقي إلى
ألحان الفطرة. فقد علمت أن هناك عرضا لفرق من جيرانني وأحبتي
من المغرب.

- قلعة شمسان..

أتسلق مناكب العقبة المزدحمة بالمركبات..

أخيرا وصلت إلى القلعة الأثرية..

على قمة الجبل يُبهرنني منظر مدينة (أبها) الجبلية عند الغروب ،
وكانني أكتشفها لأول مرة..

أسأل وأبحث هنا وهناك عن موعد عرض الفرق المغربية..
ألوان وأزياء ألفها تلوذ إليّ وكأنها تنسُل من هُلامية شكّلت هويتي
من أزمنة (توميديا) :

(البرنوس والقنْدُورَة والقشّابة وشمّلة الرأس والبابوش).

زيّ يرتديه شابان من الفرقة المغربية يتقدمان باتجاهي..

إني مجرد طفلة تبحث عن نغم الفطرة..أهرّول نحوهما :

- عَسَلَمَة ياوَليدي مُوقْتاش العَرَض تاعكُم ؟

- كِيمْسِيْتِي يالْلا كِير اكي هانية؟ التوبة ذيانا بعد العشاء.

يالْواليدة..يردّ عليّ أحدهما..

أستغرق في الاستفسارات معهما عن جداول وأماكن العرض
المغربي.

- لبوّة من جبال السّروّات..

في ذلك المسرح الجبليّ الذي يشهد انسحاب الشمس انبلجت ظلال
لبوّة جبلية أشرقّت وقت الغروب ليتجلى النهار في إشراقها وهي
تتقدم نحونا واثقة الخطى..تقف إلى جوارنا في هيبة اللبوّة الجبلية..
تستعير ملامح حسناء عربية يلقها حياء وحشمة تتماهى من مبسم
خجول يزف كلمات عربية فصيحة:

- حياك الله يا والدة ممكن أكلم ضيفينا في أمر..؟

- تفضلي يا بنتي..

تحدثت معهما في أمر يخص التنسيق في العرض المغربي ، ثم
التفتت نحوي :

- عذرا يا والدة قطعت عليكم الحديث..

- قَطَعْتَ كَلَامَنَا بِلْعَسَلٍ.. عمالك أولى ، كنت استفسر فقط عن موعد العرض المغربي.

- مرحبا ألف أنت من المغرب؟

- المغرب أحبابنا وجيراننا.. أنا من الجزائر من جبال مثل هذه الجبال..

- مرحبا ألف أنعم وأكرم يا أمي ، رَدَّتْ : تفضلي معنا تاخذين واجبك.. بُضَيْفَكَ من قهوتنا وتمرنا ومن طيبات أسرنا المنتجة.. أَكْمَلْتُ.

- كَرِيمَةَ بنت رَجَالِ و بنت حُرَايرَ يا بنتي..

و أنت من فين ؟ أَكْمَلِ.

- أنا من قمم (السروات) من قبائلها من آل فلان..

- خيار الناس.

لِيش يا خالة تَبْدِينِ حَزِينَةَ !؟

- أنا فرحانة وحزينة في آن واحد؟

- كيف!؟

- أنا فرحانة مستبشرة خيرا حين ألاقين بنات عسير وبنات السروات وكل السعوديات ، ألاقين بكل هذا الحزم والعزم في الميدان يُتَوَجَّحَنَّ خُلُقُنَّ وَخُلُقُنَّ ، وحزينة لغيابِ جَبَلِيْ هُنَاكَ عن جبلي هنا في مهرجان قممهما..

تحدثنا طويلا..سيدة من بنات جبال (السروات)..سيدة سعودية
دكتورة في تخصصها ، إحدى منظّمات المهرجان..

حدثتني عن جبالها :

جبال سروات عسير وتهائمها

- سروات رجال الحجر..

- جبال رجال ألمع..

- سروات غامد..

- سروات زهران

سروات مكة.

- جبال أجا وسلمى في (حائل)..

- جبال (مدائن صالح) ومساكن قوم (ثمود)..

- جبل القارة في إقليم (هَجَرَ) التاريخي في الأحساء..

- جبال أحد وسُلع في المدينة المنورة.. وحدثتني عن كل الجبال في
السعودية ، وحدثتها عن جبالي في منطقة (القبائل الكبرى) ، وعن
جبال (الوئشريس) و(الأوراس) وجبال (شيليا) و(أريس) فيه.. كلمتها
عن جبال (الهُقار)

و(السّاورَة) و(الأهقار) و(الطاسلي) ومدى تطابق جبالي هناك نباتا
وإنسانا وعاداتٍ وتقاليدٍ وألوانا مع جبالي هنا..

كان بيننا حديث الجبل ، وكانت هي قمم كل جبالها

تُصغي إلى صدى القبائل في جبالي تلك..

أستحضرُ لها ذاكرة قبيلة (صَنهاجَة) و (ازواوة) و قبائل (كُتامة) و (ازناتَه).. رويتُ لها ملحمة قبائلي على قمم (الأطلس التليّ) و (الأطلس الصحراوي) ، ومع حديثي أدراً حزني حين غابت اليوم قمم جبالي تلك عن مهرجان قمم جبالي هنا..

كانت هي سيدة سعودية تستقيم أمامي تُنصِتُ إلى لازمة تلك القمم..

سيدة تُستشف القلعة من قامتها علواً ، وكانت هي قامة فارهة.. قلعة تتحدّى قلعة الأتراك على (جبل شَمسان) تُعيد في أنفة صمود أسلافها من (أزْد شنوءة) ، صمودهم في وجه العسكر التركي.

- حين بكى الجبل..

يا دكتورتنا ، وهذا اللقب ليس تكلفاً مئياً وترسماً ، أنا فخورة بك و بجبلٍ طلائعيّ من بنات السعودية ، تبقيين وكل زميلاتك هنا في المهرجان على خير ونور..

بلقيانك يتبدد حزني هذا ، وأغادر (جبل شمسان) وأنا فرحة مرحة..

أجهشتُ بنتُ الأزْد بالبكاء تُقَبِّلُ رأسي..

- غلاشُ تبكي يا حبيبة؟

- أبكي لأنك تنصفيننا نحن النساء اللواتي نزلن إلى الميدان..

نحن نواجه هجوماً من وسائل التواصل الاجتماعي..

نحن نُقذفُ بأبشع الصور والفيديوهات (المُفبركة).

يا أمي هل شهدت هنا وفي كل ساحات المهرجان ما يُخلُّ بالآداب من بناتنا..!؟

- حَسَا يَا حَبِيبَهُ.. أَنْتِنِ تُعَيِّدِنِ سُبُلًا لِأَجْيَالِ الْمُسْتَقْبَلِ مِنْ بِنَاتِكِنَّ
وَحَفِيدَاتِكِنَّ ، وَدَوْمَا رَائِدَاتِ الْبِدَايَاتِ يَدْفَعْنَ ثَمَنَ الْمُبَادَرَةِ الْخَلَاقَةِ
سَوْءًا وَإِفْكََا مِنْ أَعْدَاءِ النِّجَاحِ وَأَعْدَاءِ الْبَلَدِ ، وَهِيَ هِيَ مَوْضُوعِي فِي
نَفْسِ شِكْوَاكِ نَشَرْتَهُ عَلَى صَفْحَتِي لِلنُّو..

قَرَأْتِ الْمَوْضُوعَ عَلَى صَفْحَتِي وَأَجْهَشْتُ بِالْبِكَا مِنْ جَدِيدٍ ، وَهِيَ
تَقُولُ بِصَوْتِ مَخْتَنِقٍ :

- أَنْصَفْتِنَا..

أَنْصَفْتِنَا !!

كَانَتْ قِمَّةَ جَبَالِيَّةٍ تَقْبَلُ رَأْسِي.. تَحْضِنُنِي.. تَبْدُدُ بِلِظِي دَمْعَهَا الصَّقِيعَ
عَلَى (جَبَلِ شَمْسَانَ)..

لِظِي دَمُوعَهَا تَمْتَرُجُ بِدَمُوعِي نَعْمَدُهَا سَوِيًّا عَلَى جِبَالِنَا بِدَفْعِ بِنْتِ
مِنْ قَمَمِ (السَّرَوَاتِ) وَأَمُومَةٍ مِنْ جِبَالِ الْجَزَائِرِ.. دَفْعًا يَبْدُدُ كُلَّ الثَّلُوجِ
الَّتِي غَطَّتْ جِبَالِي فِي الْأَطْلَسِ الْكَبِيرِ هَذَا الشِّتَاءِ..

تَمُورُ جِبَالِنَا حَوْلَ كُلِّ الدَّمُوعِ الَّتِي تَعْتَقْتُ فِي حَنْجَرَتَيْنَا بِنْتَا وَأُمَّ..
تَتَمَارِجُ عَلَى خُدُودِنَا لِنُعْتِقَ حَزَنِي دَمُوعًا حِينَ أَقْصَيْتُ جِبَالِي فِي
الْجَزَائِرِ مِنْ (مَهْرَجَانِ قَمَمِ) جِبَالِي فِي (عَسِيرِ).. دَمُوعٌ تُعْتَقُ دَمُوعَ
سَيِّدَةٍ سَعُودِيَّةٍ دَقِيقًا يَرْتَقِي مَنَاكِبَ التَّمِيزِ وَالتَّفُوقِ فِي بِنَاءِ نَهْضَةِ بِلَادِهَا
يَطْهَرُ سِيرَتَهَا الْعَطْرَةَ مِنْ دَنَسِ أَعْدَاءِ النِّجَاحِ.. يَجْرَفُ إِشَاعَاتِهِمْ
بِسِلَاحِ (الْفُوتُوشُوبِ) وَ(الْيُوتِيُوبِ الْمَفْبْرُوكِ) الْمَغْرُضَةِ.. يَجْرَفُهَا إِلَى
الْأَبَدِ رَمَادًا مَلُولا يُعْشِي بِصَيْرَةٍ كُلِّ الْحَاقِدِينَ..

أبها سماءٌ تُمطِرُ أمنا..

الشمس الخجولة خلف الغيمة الحبلى آفلة للغروب..

(ميفا) الخالة "هدبا" يدَّهر..

رائحة أقراص الشعير السرويّ تتسلل إلى الأسطح الأربع للبنىات
التي يفصلها حلق لا يفوق قامات الجارات مُراعيا قيم الجوار في
التواصل والحرمات..

يد "ومِّي هدبا" تمد لها قرص الشعير السروي من شطانها في قرية
"شرمة"..

من خلف خزان الماء من السطح المجاور تمد لها خالة "رابعة"
(حلبة) و قدح (الفئة) منكهة بتوابل (محايل عسير)..

وهذا صوت خالة (عَسَلَة) تَهزُّ الحبل الذي يربط القفَّة بينها وبين جارتها (الأطلسية)..

حبل ربطت به الجارتان قفَّة لتَهزَمَا الارتفاع الفاصل بين سطحَيْهما..

سطح خالة (عَسَلَة) من قرية (رُجال) في رجال ألمع أخفض بدور عن البنايات الثلاث..

تضع الخالة عَسَلَة في القفَّة قرص (خمير ذرة) وكاسة من (الْقَطِيْبَة)..
تُبادِلهن الجارة (الأطلسية) ما تيسَّر مما حضَّرته من أطباقها للفظور..

مسرح مفتوح بين الجارات الأربع عنوان لتراكم الحب والألفة بينهن والذي كان الدافع لصبو دهن في الحيِّ القديم الذي غادره معظم الجيران ، وأصررن على المكوث في بناياتهن العتيقة ضاربات عرض الحائط بموضوعات الأحياء الخرسانية الصماء الحديثة في أبها..

أذان إفطار..

أجواء رمضان على كل الأسطح في (أبها)..

على مائدة الإفطار الكل يسارع في التهام بعض رشقات الشوربة ولقيمات (السنبوسة)..

ما زال الإخوان الصغار الذين صاروا رجالا يخجلون.. يتحايلون في حياء حتى يتسلَّلوا للتدخين.. ما زالوا يراعون هيبه الأكبر وحرمة.. ينسحبون من المائدة لكلِّ حُجته :

- شَوِيَّةٌ..شَوِيَّةٌ..وارجع أكمل فطوري نسيت شاحني في السيارة..
- ٥ دقائق نسيت باب السيارة مفتوحا لا تشيلي الأكل أعود أفطر..
- يتنفس الأخ الأكبر الصعداء فقد وعد الكل أنه أقلع عن التدخين بعد القسطرة.. يتسلل بدروه إلى مكتبته ليدخن ، والكل ينصرف..
- تبقى (الأطلسية) مع التهاميتين الصغيرتين اللتين تهيلان عليها أسئلة وهي لا تكاد تصغي لهما من شدة الصداح وهي تجهز قهوتها في (الإكسبرسو) الكهربائي دون أن تغادر المائدة..
- يتمازج صوت جهاز القهوة مع دوي الطائرات العسكرية التي تحلق في سماء (أبها)..
- صداح شديد يُشجج سمعها رغم ٣ فناجين قهوة سكبته في حنجرتها..
- يسحبها التهاميتان الصغيرتان بقوة :
- يا عمّة..يا عمّة..أحبّشْ دِقِينِي بقوة مِيدَ أمسك الطيارة
- خَلْفَ..خَلْفَ أدَقِّيشْ أنتِ وأختشْ..
- تخمن (الأطلسية) :
- طيب أكمل الخمسة فناجين من قهوتي بعدين ألعب معهما وأمرّججهما..
- تَصْرُ الصغيرتان على أن تمسكا بذيل الطائرات الحربية في السماء فأسطح (أبها) تلامس السحاب..
- يا عمّة يا عمّة لِمَ طيارتي لا تطلعُ قَوْتَنُ في السماء مثل تية؟
- يا حلوة أنتِ طيارتشْ لعبة وتية طيارة حقيقية..

- من راعيها يا عمّة؟ من يسوقها؟

- راعيها شاب مثل بابا كان شاطر في المدرسة وصار يعرف يسوق الطيارة..

- يا عمّة يا عمه هو ياخذ ولدو معوه..

- يا عمّا يا عمّة هو عندو سنبوسة وفمّتو؟

- يا عمّة هو قاعد يتمشى مع جدّا حقتوه وعوالوه ويعينون لنا من امطيارة؟؟

- هو ياخذ مامّو وعمّوه يفطرون معوه؟

وابل من الأسئلة تذرفه الصغيرتان على العمّة دفعة واحدة ، وهي لا تزال تحت وطأة الصداع من اضطراب الكافيين في دمها..

تسترسل نظرات العمّة (الأطلسية) في السماء.. تفكر في كل من هم داخل الطائرة يصنعون أمنَ سماء (أبها)، وترحل إلى الحدّ الجنوبي.. إلى صفوف الجنود يشيّدون بأجسادهم وأرواحهم طوقا آمنة لكل من هو آمن في حوش بيته.. في سطح بيته.. تحت شجرة مزرعته.. تحت ظلال نخلاته في الواحات.. يفطر.. يتسحر.. يصلي.. يقيم الليل آمنة في سربه..

تعود إلى أجواء مائدتها وقد غطى وجهها كفوف الصغيرتين ملطّختين بعصير الفمّتو.. تديره بقوة يمينها وشمالا.. تسحبهما نحو (الأرجوحة) لتؤرجهما بقوة كي تمسكا بذيل الطائرة..

تخمن :

كيف تشرح لهما كل ذلك؟ وأكبرهما لم تتعدّ عامها السادس:

- هذا اللي في الطيارة ولد بطل يدافع عن بيوتنا وامبلد ويحرسها حتى ما يجي واحد يسرقها ويقتلنا..

- يا عمّة يا عمّة هو يسرق بيوتنا؟

- يا عمّة يا عمّة هو مثل البسّ الكبير اللي يدخل من تحت الشبك وياكل الديكة حق جدّتي؟ تضيف الصغرى..

- أيوه أيوه..

تخمن الأطلسية :

ايوه ايوه..

هو هرّ كبير شرس يباغت من الشرق.. ما زال يحمل مرارة هزيمة "ذي قار" ينتقم و يشترى ندم المتواطئين معه ، لكنّ الرجال الأوفياء كهذا الطيار له بالمرصاد..

تتمرحج التهاميتان الصغيرتان رافعتين رأسيهما إلى السماء واثقتين بأن سماء (أبها) تمطر نثراتٍ مطرٍ شفافة وأمانا وأمانا يصنعها هذا الطيار البطل الذي يفطر وحيدا في مقصورته بعيدا عن أهله ، وربما يفوته موعد الإفطار ليقظته وفطنته التي تنسيه ارتشاف قطرة ماء..

طيار في سماء (أبها) ، وسرب من خيرة الشباب على الحدّ الجنوبي لتمطر سماء (أبها) أمانا وأمانا للتهاميتين الصغيرتين على أرجوحة العمّة الأطلسية.. أمانا وأمانا للأطلسية تفطر مع الأهل على السطح ، أمانا وسكينة للجارات الأربع يتبادلنّ من أسطحهنّ أطباق الإفطار..

حَجِّ (جَدَّةُ مُوسَلِيمَانِ)..

"يَا طُيُورَ اَللّٰي طَارُوا فَالَسْمَا عَنْدُو دَارُوا..

يَا حُجَّاجَ بَيْتِ اللّٰهِ..

إِذَا شَفِئُو رَسُوْلَ اللّٰهِ.. شِفْنَاهُ وَرِيْنَاهُ فِي مَكَّةِ..

خَلِيْنَاهُ يَثْوَضًا وَيَصَلِّي..

وَيَقْرَأُ فِي كِتَابِ اللّٰهِ.. "يَمَّا يَمَّا كَحَلِيْلِي بِالْمَرْوَدِ نَخْرَجُ بَرَّهُ نَشُوْفُ

سَيِّدِي مُحَمَّدٌ يَدُو حَمْرًا..

بِالْخَوَاتِمِ وَالْحِنَّةِ طَيْرِ الْجَنَّةِ طَيْرِ الْجَنَّةِ.. صَلُّوا عَلَيْهِ صَلُّوا عَلَيْهِ.."

لازمة نشيد يرددھا أطفال مدينة "مَزْعَنَة القديمة" في ذكرى المولد النبوي وعند عودة الطيور المهاجرة في فصل الربيع.. لازمة أنشودة ارتبطت بالحج والشوق إلى بيت الله..

الحج إلى بيت الله شعيرة وعبادة متجذرة في ذاكرة ما قبل الميلاد.. فطرة.. غريزة مكنونة راسخة في ناصيتنا وهي لا تزال في أغوار ذلك القرار المكين.

حين تجفّ تربة سفح الجبل المنحدر من بساتين الفلّ في حيّ "ابن صيام" أعالي هضبة "الأبيار" أعلى مدينة (الجزائر) بعد غزارة أمطار الشتاء، وذوبان الثلج المتراكم على أشجار الزيتون والصنوبر.. حين يحدث كل ذلك يزيد انصهار الثلوج من غزارة سيل وادي "قريش" المتسلل حلزونياً عند منبت الهضبة.. ويتمكن الأطفال من التدرج من خلال مدرجات البساتين إلى حافة الوادي يلهون بزوارقهم الورقية التي تترنح عبر زبد السيل يعبر بها إلى (مكة) إلى بيت الله..

وعند صلاة كل صباح من أول أيام الربيع تُخيم على أرخبيل مدينة الجزائر وعلى بساتين الفلّ ظلال أسراب الطيور التي تعود من مهجرها، فينشدها الأطفال الصغار أنشودة الحج..

روايا ترويها لنا عجائز الحي من الجدات في أحاديث الصباحات والأماسي ، تحفها نسائم شهر أيار..

كل المخلوقات تحج إلى بيت الله حين يحل الشتاء القارس على البحر والجبل.. تعرج طيور البساتين والفرشات أسراباً لتحج إلى البيت ، وتمكث هناك متبتلة جارة للكعبة والروضة الشريفة ، ثم تعود في فصل الربيع إلى موطنها وقد ملأت مناقيرها بقطرات ماء من (بئر

زمزم) تصبها في الآبار والينابيع التي تتوسط بساتين الفلل تباركها،
فتحلق طيور النورس من جزيرتها عبر "باب بحر" و"باب ذريرة"
وعبر "القصة المحروسة" إلى أعالي العاصمة لترتوي من ماء
"زمزم" ثم تعود إلى جزيرة "النورس" لتحضن بيضها قرب شاطئ
"الكتاني" ..

نحن - الأطفال- لم نكن نعبث بمياه الآبار والسواقي والينابيع
والسواني التي تتخلل بساتين بيوتنا، لأن مياهها مباركة بمياه "زمزم"
، ولا نقفل أقفاص العصافير لأنها تعود إليها بعد حجبها ، ولا نمسك
بالفرشات المزركشة التي تعود من الحج..

وتعود معها "جدة مؤسليمان" .. "جدة مؤسليمان" أو "الحاجة
مؤسليمان" هي الأخرى تعود إلى البساتين في فصل الربيع بعد أداء
حجها.. تتمازج خضرة لونها مع أوراق الشجر في البساتين.. تحلق
هنا وهناك.. تحط على أوجها وعلى فواكه الربيع وعلى الموائد..
تنساب محلقة عبر "فرندات" المطابخ التي تتخللها أشجار الفواكه
الفارحات من البساتين..

لا أحد يُطارِد "جدة مؤسليمان" وحرام قتلها.. إنها حبيبة النبي وحبيبة
الأطفال، تحج إلى بيت الله كل شتاء.. ترتقي مع تعامد البيت المعمور
في السماء السابعة، ومنه تعرج إلى سدرة المنتهى تقتبس من خضرة
الجنة لونها الأخضر ، ثم في إسرائها من الجنة تحط في رحاب
الروضة الشريفة إلى جوار النبي . وعند اقتراب الربيع تعود إلى
بيت الله تطوف طواف الوداع ، لتعود مع كل الطيور إلى بساتين
بيوتنا ، فتضفي على أوراق الشجر والحقول خضارها الذي اقتبسته
من جنان الفردوس. فلا أحد من الأطفال يقطع الشجر ، ولا يقطف

الورود الفواحة، ولا يجني الثمار التي لم تنضج بعد ، لأن كل هذا يأتي من بيت الله..

كل القيم التي كان الكبار من الآباء والعجائز يرسخونها فينا ارتبطت بهذه الشعيرة ، شعيرة الحج :

الرفق بالمخلوقات الصغيرة والحفاظ على البيئة من مياه ونباتات..بركات الحاجة "الجدة مؤسلمان" أو " فرس النبي" (اليعسوب).

الحجّ عبادة وشعيرة راسخة فينا قُبليا منذ أحقاب..من منطلق أزمنة طفولة الرجال..

أطفالُ أعيننا شاخصة من شرفات بيوتنا أعالي الهضبة المطلّة على الأرخبيل باتجاه منحائها المألوف خلف جبل "الخِشنة" الذي يحز خليج مدينة الجزائر متّجهة نحو القبلة حيث تشرق الشمس كل صباح من بيت الله..من هناك تعود أسراب الطيور من الحجّ ، وتعود "جدة مؤسلمان" ، ويأخذ سيل (وادي قريش) عبر الأرخبيل زوارقنا الورقية إلى مكة ، ومن هناك تتصاعد تهاليل كل الحجاج..

الحج إلى بيت الله.. "أرض الحرمين" .. الأرض الذي يدخل المسلم إليها باكيا لأنها تسكنه قبليا فتصغر الدنيا في عينيه.. يغادرها باكيا لأنه يدع روحه تحوم حول الكعبة.. روحٌ تأبى العودة إلى وعائها.. أرض مقدسة تسكنه قطعيا إلى الأبد..

60 ألف حاجّ هذه السنة من حجاج الداخل احترازيا ، قرار فيه من الحكمة ما يحفظ الأرواح وما تُدرف له دموع المسلمين على وجه الأرض ، ومواكبٌ من الصلوات تتصاعد إلى السماء أن تعود الشعيرة إلينا ويرفع البلاء..

على مُتون (الواتس أب) -1-

- بين جوالين..

أستل يديّ من كتلة العجين..كُور السّميد المُتخمّر عالقة
بهما..أحوص هنا وهناك في المطبخ..

أه هذا واحد من الجوالين عثرت عليه داخل الثلاجة..أبحث عن
الآخر..أدقّ عليه.. هاهو يرن ويشع أضواءً من داخل
(الميكروإيف).. الحمد لله مرّ سهوي بسلام.. ستر الله فلم أتسبب في
انفجار كونيّ مُحدثة كارثة في مجرّة الحيّ..

أمسك ب(الجلاكسي) المُواكب للتطور التقني..أمسح من على سحنته
نثرات السمن والصلصة التي تتشبث به حين أكتب..أمسك بالشيخ
(الموتورولا) بيدي اليسرى..جوال عتيق يؤدي فقط مهام مكالمات
الطوارئ ورسائل (الواتس) بيني وبين رفيقي بشريحة احتياطية
وذلك حين نُطفئ جوالنا الأخرى الثرثرة.

لقد انتهيت من كتابة فقرتين من نصي وأنا أعجن خبز السميد
وأحضّر (شَرْمُولَة) الثوم والكرابية الحارة.
تَرْنَتْنَن..تَرْنَتْنَن..

يد المهياج النحاسي ثواكب إسقاطا حُرًا لنصي على شاشة الجوال
أرسلها حسب تسلسل الفقرات إلى السّي (موتورولا) مُتزامنة مع
إشعارات الواتس.. دقائق المهياج ورنات الإشعارات تُربك حيّ
(شَمَسَان) ، وتحدث فيه تلوثا سمعيا..

على متون (الواتس أب) -2-

- ميلاد نصّي..

لقد صببتُ فقرتين من نصي (هُو ليس زوجي والآخر ليس والدي)
..أرَقْنِي هذا النص منذ فترة حين علّق على أحد نصوصي أديب
مُحَنِّك (مايسترو) الرواية والقصة قال :

- لِمَ تَنحصرين في الكتابة عن (السعودية والجزائر) فقط ولمَ نجدُ
شخصية (بو لحاف) و(الشيخ الحكيم) و(السّي عبد القادر) في معظم

نصوصك؟! أطلق العنان في كتاباتك إلى خلق شخصيات أخرى
وأماكن أخرى.

قبل ذلك بفترة كتبت نصا بعنوان (الدرجة الأولى - سيدة من زمن
الأمومة) ، وجاء التعليق احتجاجا آخر من دكتورة مرموقة حبيبة
أستاذة نقد و... و.. :

- حبذا لو كانت هناك عقدة في القصة ومفارقة ، مثلا لم يكن الشاب
بارا بوالدته وكان عاقا..

أجبتهما :

- أنا أوثق فقط..

أنا أكتب مذكرات.. أرسخ في كتاباتي أحداثا عبرثني.. أدونها كما
هي..لم يكن الشاب علي ولدا عاقا ، وهذا ما حدث في (مطار الملك
عبد العزيز) في جدة..

من أين آتي لك يا صديقتي بكذبة لأسميها أدبا؟!!

وردت على أديبنا القاص والروائي المحنك :

- أنا لست روائية ولا قاصة..أنا أوثق فقط ما يحدث من حولي كي
أحلق بعيدا عن حيز (رجال ألمع) و(تهامة) و(عسير) و(مكة
المكرمة) و(المدينة المنورة) والسعودية والجزائر..حبذا لو أهدى
مع رفيقي تذكرتي سفر لرحلة إلى (الأمازون والمسيبيي) ، وحتما
سأكتب عن الهنود الحمر وحضارة المايا.

- مشرطه الرقابي

تنصب نصوصي تنصب على صفحة الجوال من تفاصيل يومية
تعبروني.. تُعاقِر وجداني فرحا أو حزنا.. تَنصِبّ جاهزة عفوية
واقعية دون سابق إنذار.. نص يولد فجأة دون مخاض يتأرجح بين
جوالين في المطبخ.. في السوق.. في أي مكان دون موعد.. أراجعه
مرة واحدة لأفْتَرِ أخطاء (الكيورد) ، ثم يرتقي النص إلى جوال
ثالث إلى واتس الأستاذ المُعْتَق يُشهر عليه مشرطه الرقابي ليَقْص أيّ
أمر قد يكون محظورا أو مُحرجا أو حساسا كتبته دون سوء نية ، ثم
يمنحني (فرمان) لنشره على صفحتي..

على متون (الواتس أب) -3-

- طه حسين ليس بجبروتك..

تتزام نصوصي على صفحتي فينصب عليّ وابل من الاحتجاجات
من الأدباء والقراء ومعهم رفيقي :

- جمّعي هذا العمل في كتاب!!

حين أقتنع بذلك ، ينصحنى الرفيق كل مرة بأخذ دورة في
الكمبيوتر..

أحتجُ :

- أنا سيدة توسّطها العمرُ وعُفّ ذهنها بتراكمٍ من ٤ عقود من التعليم
العسكري في الجزائر ، واكتظت ذاكرتها بأرشيف لن يتحمل
معلومات زيادة منذ أن سجلني والدي في الروضة لتعلم الفرنسية
وفي الزاوية (المدرسة القرآنية) في آن واحد في سن الثالثة من
عمري دون إذني..

لن أتعلم شيئاً آخر أبداً.. أبداً.. ما اكتسبته من خبرات وتعليم
ومعلومات يكفيني حتى أعايش ما تبقى لي من عمر افتراضي!

يستسلم الرفيق ويفتح اللابتوب ويتحوّر إلى ناسخ يتقمص شخصية
سكريتيرة مُهدّبة مُطيعَة يُنسّق النصوص وحوله قَطَط البيت باسطة.
ذراعها بالوصيد على الكمبيوتر وعلى الصفحات المتناثرة في
فوضى و هي تقف مستبدة تُملي عليه أموراً وترمي إليه بصفحات
مُشوّشة بَوَّبَت عليها محاورها ورثبت فهرسا بخط رصاص فاتح لا
تُبصر كلماته إلا بالمجهر ، وإذا ناداها وهي في المطبخ ليستفسر عن
كلمة مُبهمة كتبتها بخط ركيك مُستعجل..كلمة معظمها ناقصة
الحروف..ترد عليه بعصبية :

بعدييين بعدييين خبزتي تحترق أسّ الحين أنني كاتبة.. أنا الحين
مجرد سيدة روتينية في المطبخ..!

يستسلم و ينقل باللابتوب إلى المطبخ يقف على بابه متحفظا خاشيا
عصبيتها :

- طيب اقري هذي الكلمة كتبتها ناقصة..

تقرأها لا مبالية غاضبة

أوه..أوه راني مشغولة خبزتي احترقت..أنا الحين مارانيش خدامة
لمرتك الكاتبة..!

يُحدِّق فيها مُستسلما مُطنطنا رأسه مُتمتِّما :

- والله حتى طه حسين لم يكن في هذا الجبرووووت!!

فُرْسَان

(بُو صُرَّة) .. وضاعت الصُّرَّة ..

يُمسك الشيخ الحكيم بطرف عُثرته..

يمسح دموعه خفية عن الصبي..

يلتفت الصبي يمينا.. شمالا ، ويطأطئ رأسه ، ثم يرفعه نحو آخر
غيمة تلهو عند الزاوية هناك على قمة جبل (امشريقي) المطل على
مدينة (أبها)..

الأب والابن على الربوة المطلّة على أحياء المدينة كلّ منهما يخفي
عينيه المغرّورتين بالدموع في زمن (كان عيبا على الرجال
البكاء)..

مع الشروق كان الشيخ الحكيم يُدشّن رجولة طفله ، وكان الرجل
الصغير يخطو نحو تلك الرجولة واثق الخطى معتجرا حزامه
القروي وشفرته..

لقد اجتاز شهادة التعليم الابتدائي من مدرسة (البتيّلة) في (رجال
الأمع) بتفوق ، وعليه أن يلتحق مع رفاقه بالمتوسطة في (أبها)
مهاجرا..

دَفَق من المشاعر الشحنة يُثقل كاهل الوالد والولد :

فرحة.. حزن.. أمان.. حنين.. نجاح..

عاطفة تجرفها مفارقات أحاسيس لوعة الفراق ووطأة الغربة..

استبشار بمدرسة الحياة والعلم يُصقل فيها شباب واعد.

الشيخ الحكيم الراعي الفلاح يُودّع نجله.. ابنا كان له عضدا في الحقل
والمرعى ، والابن يُودّع أبا وأهلا تحوّل بينه وبينهم جبال (قيس -

امشرفة - شوكان - امقرون - قرى السروات العاتية من السودة حتى
مجموع الأوطان العتيدة التي تشكّل مدينة أبها..

السفر على الأقدام آنذاك - من (تهامة) إلى (السراة) عبر الجبال
والأودية شاق وطويل..

يغادر الشيخ الحكيم ولده متجها متوضّنا وشاربا من بركة (امركية)
التي تتوسّط قمم عقبة (امقرون) غرب مشارف (السودة) حيث يُكمل
مساره مشيا من جبل (تهلّ) مُنحدرا إلى (تهامة) عبر نفس الطريق
التي يُطلق عليها (درب الدولة) نسبة إلى الدولة العثمانية التي كانت
تخدمها لأغراض تنقلها بين التّهائم والسروات..

يُشير إلى ولده بيده صاداّ نحو الغرب صوب (تهامة) حتى لا تفضحه
دموعه..

بخطى متثاقلة يخطو الطفل الرجل مع رفاقه نحو (امعزبة) ، وهي
الحجرة الصغيرة التي سيتقاسمها مع خمسة من أبناء قريته في البيت
الطينيّ في الحيّ القديم بالقرب من المعهد العلمي في (أبها).

الصبي مُثقل القدمين يجرُّ وزر غربته مع آخر طيفٍ للسيارة التي
ركبها والده في طريق ترابي جبليّ وعِر نحو (السودة)..

غربة تُثقل قدميه الصغيرتين وتزيدهما ثقلا تلك (الزئوبة) التي
يحتذيها ، فهو مضطّر إلى أن يلبس (شبيشا) من (الكاوتش) اشتراه
له والده من سوق بلدة (رُجال) ، لأن للمدينة والمتوسطة أعرافا
أخرى عليه أن يلتزم بها في لباسه..

إنها أول خطوة نحو قيّد النّمذّن الذي سيَسرق منه شيئا فشيئا حرّيته.

يسحب غربته ويسحب معها الشبيشِب الذي تتنكر له قدماه..

قدمان كانتا بالأمس حُرَّتَيْن طليقتين حافيتين تصقلهما حجارة (مَيْل قَيْس) ومجرى (وادي خُرار) نحو مدرسته في البتيلة.

مضى فصل دراسيٍّ على الطلاب الصغار..

كان البعد عن الأهل صعبا على الصبيّ ، لكنه كان يواسي اشتياقه بفرحة كبيرة تغمره.. إنها المكافأة الماديّة التي تصرفها الحكومة للطلاب الذين يدرسون وقدرها (210 ريال) ، سيُعين بها والده في زمن التحوّل من المُقايضة إلى سيولة النقد ، سيشتري من بعضها أيضا هدايا لوالده وشقيقته وأخيه الصغيرين.. فرحة إعانة والده ، وفرحة اقتناء الهدايا لأهله عند عودته إليهم في الإجازة كانت تنفّس عنه إحساسه بالغربة في المدينة..

إنه صار رجلا.

بعد مرور أيام اكتشف الصبي مع رفاقه القرويين أشياء جديدة في سوق (الثلاثاء) بأبها..

لقد عرفوا نوعا من الخبز غير الخبز الذي تصنعه القرويات في (ألمع) من الذرة والبر والشعير والدخن على الحطب في التنور..

اكتشفوا خبز (التميس) وأكلات جديدة : الفول ، والقلابة والعدس والمُطَبَّق وغيرها ، وتأقلموا شيئا ما مع كل هذا ، لكن كان أكبر تساؤل لديهم هو أين ينبت الخبز الصّامُولي؟

كان الصبي كزملائه يتعرف على معطيات المدينة ، ويتكيّف مع ذلك قدر استطاعته.

تفوّق في السنة الأولى ، وتقاضى أول منحة له ، ومبكرا في أول يوم الإجازة انطلق برفقة صديقه إلى سوق (الثلاثاء) ، وسرعان ما لفت

انتباه الصبي شيء - ما- ذو رائحة غريبة تنبعث من بقالة في محاذاة
السوق.. يطلّ على الرفّ ، وإذا بأمر غريب عنه يستفزّه!!

إن هذا الرجل يبيع منكرا !!

إنه يعرض في دكانه خمرا !! هرع الرفيقان إلى إمام المسجد
المجاور وأبلغاه عن الرجل الفاسد..

أقبل الإمام مع جمع من التجّار وإذا بخمر الرفيقين زيتونٌ ومخلّلات
لمّ يعهدا رائجتهما..

بعد البلاغ الكاذب انتشر الرفيقان في السوق واقتنيا أغلى الهدايا
لأهليهما..

وضعا كل مقتنياتهما في (صُرّة) كبيرة وهرعا نحو نقطة المركبات
المؤدية إلى (السّودة)..

من السّودة نحو (أمقرون) ونفس جبال الصعود الأولى باتجاه الأهل
والديار..

تحررت قدما الرفيقين من الأحذية ، وحافيتي القدمين انحدرا نحو
التهائم يسار عان الخطى قبيل الغروب وغسق الدّجى على الجبال.

يُثم الصبيّان فرحين يتعاونان على حمل (الصّرّة) المترفة بهدايا
الأحبة تسير خلفهم الغيوم الحُبلى وتسبقها فرحتهما واشتياقهما.

الطريق شاقّ ، والليلُ أظلم.. وهنّت قدما الصّبيّ من شيء - ما -
زحف تحتها ربما كان ثعبانا ، فائفلتت (الصّرّة) من على ظهره ،
وهوت من قمة الجبل إلى وسطه الوعر..

خيمتُ حلّكة الليل على الجبال، وضاعت الصرّة ، وبكا الصبيّان
كثيرا كثيرا.

دخل الصبّي حوش البيت ويده متشبّثة بخاتم الذهب الذي حفظه في
جيبه هدية لشقيقته ومعه ظرف به مائتا ريال من المنحة لو الده.

حمد الله حين زقت له عينا والده فرحة ملأت كل الفراغ الذي نخر
قلبه مع ضياع الصرة.

بعد صلاة الفجر انطلق مع رفيقه نحو أصدار الجبل لعلهما يعثران
على بعض من الهدايا.. بحثا وبحثا.. كانت الهدايا مبعثرة هنا وهناك
على أغصان الشجر بعضها ممزق ، والبعض الآخر تعبت به القروود
، والبعض الآخر يسبح في بركة الغيل.. سراويل معلقة على الشجر
مع أعشاش الطيور ، ولقات قماش تجرفها الرياح..

جمعا الشيء القليل مما تيسر لهما الوصول إليه. بكا الصديقان
فرحتهما..

بكا الصبّي (بُو صرّة) حين ضاعت الصرّة وضاعت معها فرحته.

فارسٌ يُوقِظُ القريةَ

طفلٌ وديعٌ.. حليمٌ.. خجولٌ كأترابه من أطفال القرية..

هو ككل الأطفال من بني العمومة والأخوال يقتربون منِّي متحفظين.. يستنكرون كوني إما خالة أو عمّة لهم ، ومع ذلك عند كل تجمع عائلي في مناسبة أو عرس يمارسون شيمهم في التحية في حياء بريء..

قُبلات مترددة على اليد والرأس..

سِحْنَتِي الغريبة عنهم كانت تثبّت كل الريب والاستغراب في صلة القرابة بهم والتي لم تستوعبها عقولهم الصغيرة..

أما الطّفلات فكُنّ أكثر جرأة.. يقتربن مني دون تردد ، ربما كانت تستنقطن تلك المراوح البراقة المزركشة التي قدّمتُ بها معي وكل الأشياء المختلفة التي أرّديتها ، إضافة إلى لهجتي ولُكْنَتِي الغريبة عنهم أحدثهن بها فأبدو لهن أنني (أليس) قدّمتُ من بلاد العجائب..

سيّدة صيغت من كارتون تحركها خيوط..

هو كان من بين الصبيان الذين لم يبلغوا الحلم بعد ، فيُسمح لهم بدخول قاعة السيدات...

كان قليل الكلام ألمعيّ السحنة ، ألمعيّ الذكاء.. نظراته مُقوّسة يصبُّها هنا وهناك..

نظرات ممتدة إلى أغوار ذهنه تترجم ما يقع في مجالها الإدراكي..

حين كان أترابه يعبثون بكل أدوات الديكورات في الصالة.. أطباق..
خوص.. تحف.. علب.. مناديل.. و...و.. كان يستنبت أموراً أخرى..
يستنتج دلالات من كل تلك الأشياء التي تبدو بسيطة مجرد أدوات
لهو وعبث لأترابه..

تمر الأيام والشهور ويخط شارب الصبي ومثله كل أترابه..
ينضمون إلى معشر الرجال في القاعات المخصصة لهم.. ويحظر
عليهم عالم الخالات والعمات من زوجات الخولة والعمومة.
من قبل كان وأترابه من الأطفال قد اختفوا من جنبات الوادي وأفنية
القرية.. جيل مارست عليه طفرة نفطية عهد طفولة مع إيقاف التنفيذ..

انقطعوا عن التحليق إلى مدار سهم يُشيِّعون إليها في مواكب
حانوتية.. البيوت المرفهة المكيفة تمادت أسوارها على طفولتهم
وتحولت إلى أقبية.. بيوت.. (مواقف parking) للطفولة يعبرون من
خلالها إلى عالم التَّوْحُدِ وكنت أنا في شرفة بيتي التهاميّ أطل على
الوادي أترقب خروج محمد وحسن وعلي وإبراهيم للهو..

وادي القرية مهجور لا أصغي إلا إلى دويّ المكيفات ونعيق الغربان
وصمت القرية التي تمقت القرويين الذين ألوا إلى نوم النهار...

عمرُ إطلالتي على القرية الصامتة أكثر من ربع قرن ، وعمر
صمت القرية مقداره زمن من النفط..

ومن غياهب غياب القرية ينبجج نبوغ فارس ينقبُ عن معالم الحياة
في بطن الوادي..

يقلب ثراه ، وعلى خطى الأثر الذي يجتثه من الطور والوادي تتوالد
ألف حياة للعابرين من خلال (جبل قيس) إلى مجرى السيل في
(وادي خرار) يجمع الأثر.

ومن مقومات الطبيعة من عروج السدر وشجر الثعب وسواهما
والحجر الصوّان والمرو يعيد إلى القرية صوتها..

يوقظها ذات فجرٍ من سباتها ، ويوقظ قلب سيدة غادرها صخب
مدينتها وضوضاء الأزقة التي صيغت من الحياة التي لا تنضب..

يوقظ سيدةً و عدها شاعر قروي متيم بصوت قرية كانت فلم تجدها
أبدا حين أطلت من شرفة بيتها الريفى.. لكن من ملكوت النبوغ يتجلى
تميز فارس مهندس من أبناء القرية يمتطى سارية الإبداع..

يعيد للقرية صوتها ويهدي إلى السيدة ومضاتٍ من الضوضاء
والصخب في الوادى.. فارس ألمعى يعيد إلى البيت الألمعى ملامحه
وأدوات حضارته.. معالم وأدوات توحى للعابرين من الزوار أن
حضارة القبيلة العربية ربتٌ واحتبّت هنا ، وها هي توقظ القرية من
سباتها..

مركبات المركبات تدوي في الوادى.. زوار وهواة وعاشقون
للأصالة التي يعيدها الفارس إلى قرية (خرار)..

أضواء بألوان الطيف يزفها الفارس محمد إلى قريته.

هي الحياة كل الحياة التي يوقظها بها..

تُهْمَة باطِلَة..

كم تمنيت أن يزور بيتي لصُّ أمينٌ شغوف بالقراءة ليسرق كتبتي
ودواوين رفيقي وكل الكتب المتراسة على الرفوف..

كتبتي ودواوينه وكتب أخرى اصفرّت أوراقها.. تلاشى بعضها خرقاً
على خشبها الذي كسته الأتربة.. يزورها من حين لآخر ضيفٌ يقات
من ورقها.. يحفر أغلفتها.. يرسم عليها دوائر خرافية كأنه يستوحىها
من أزمنة فضائية لعائلة القوارض..

لم يأت اللص الأمين أبداً ليسرق كتبتي ودواوينه ، فآزمة اللاقراءة
التي استُشعرت في نهاية القرن الماضي صارت واقعا وطالت لصِّ
أحلامي هو الآخر..

طغت الصورة والرواية المتحركة على الساحة ، فزادت من كساد
الصفحات الورقية ، وراحت السطور الصامتة تغوص في غياهب
الرفوف والأدراج ، واستفحلت أزمة اللاقراءة حين قامت النهضة
الرقمية واكتسحت الشاشات الزرقاء عيون الرضع قبل الكبار..

لا قراءة..

لا قراءة..

وجيل شاب نتهمه بالعبث وإدمان الشاشات الزرقاء تستعبدهم
الصورة على الصحافة الصفراء الناطقة تبخها الجوالات من مراجع
لا مصداقية لها تُوظف صوراً مغرضة في (التيك توك والفيس

واليو تيوب) وتطبيقات أخرى.. ذهنُ سيدة من القرن الماضي مثلي
لن يستوعبها أبدا.. أبدا مهما تدرّب عليها..

رُحنا نَتهِم كل هذا التطور وجيلًا هذه معطياتُ زمنه وأدواتُ
حضارته.. رحنا - كجيل - مخضرم ننبذ كل هذا التطور العلمي
ربما من غير سوء نية ، وأكبر تهمة وجهناها لهذا الجيل هي :
اللاقراءة.

اكتسح هذا الجيل من شباب وشابات الساحة الاقتصادية في هذا العهد
الجديد للسَّعودة ، وانطلقتُ (للشَّوبينج) كسيدة تقليدية مستهلكة في
الأسواق ، وأدركت من حديثي مع الفتيات والشباب أنهم ليسوا ذلك
الجيل الذي نحملُه وابلًا من الاتهامات.. بائعات وباعة وكباتن في
شركات (التاكسي كريم وأوبر) وغيرها معظمهم ما زال يدرس في
الكلّيات أو يحضّر لدراسات عليا أو لا يزال يدرس في المرحلة
الثانوية أو متخرج جامعي يحمل شهادة عليا.. فاكتشفت جيلًا لا
يرضى أن يكون مُقعدًا في انتظار الوظيفة الحكومية.. جيلًا لا يرضى
أن يكون يدا سفلى ينتظر إعالة من أب أو أم.. لكنّ المفارقة التي قلبت
مفاهيمي : أنه جيل شغوف بالقراءة.

صدر كتابي (كنزة) ، و من حبي التحدّث إلى هذه الطلائع من هذا
الجيل المستنير أدركت أن القراءة ما زالت بخير :

- ياخاله..ياأستاذة ما هو آخر إصدار لك؟

- كتابي بعنوان (كنزة)..أرد

- يا أستاذة بالله عليك أين يُباع؟ هل تبيعين كتابك؟ أرغب في
قراءته..

- لا يا ابني لا يا بنتي أنا لا أبيع كتبتي ،

هات رقم (واتس) وسأرسل لك نسخة رقمية.. هكذا أرد في كل مرة..

- لا يا خالة.. لا يا أستاذة ، أرغب في كتاب ، لا أستمتع بالقراءة إلا على الصفحات الورقية ، على كل صفحة من الكتاب أضع علامة ، كل فقرة هي معلّم ، وكل باب منه هو محطة تُرسخُ في ذاكرتي المعلومة وتجعل القراءة أكثر متعة ، أضع سطرا تحت كلمة ، أعلم بقلم الرصاص على جملة ، وعلى عنوان ، أعود إليها بعد ذلك.. هذا كان حديثهم كلهم.

فتياتٌ وشبابٌ.. جيل كم نتهمه بالباطل ! وذنبه الوحيد أن بيننا وبينهم فرقا من الزمن البسيط. تهمئنا باطلة باطلة!.

نفذت كتبتي ولم يبق من (كَنْزَة) إلا القليل ، وقررت مع سبق الإصرار والترصد أن أصير ذلك اللص.. لص أحلامي، لأقتحم مكتبة (نادي أبها الأدبي) وأسرق من مخزنه ما تيسر لي من (كَنْزَة) لأهديها إلى كل من يطلبها مني من هذا الجيل المُستنير..

وبالتأكيد ستنتسّر عليّ اليمامة العسيرية (أيقونة نادي أبها الأدبي) الأدبية القاصة / كفى عسيري..

مِسْوَاكِ بَرِيالِ..

في مناكب الوحدة أمضي ثم أقول:

(قال فيكتور هوجو **Victor Hugo** وقلتُ..)..

قال:

(الإنسانُ ليس سوى مصباحٍ تجعلُهُ الوحدةُ نجماً..

تحت خرقةٍ من القماشِ يغدو الراعي عراباً..

يتجلى أحياناً بوميضٍ..

مكلاً بتاجِ بابويٍّ مُرصَعٍ..)..

وقلتُ :

الإنسان ليس سوى إنسان تجعله الوحدة رماداً..

تحت سقف حجرته يغدو الإنسان رُكاماً..

يتوارى دوماً عابساً مُطأطأىَّ الرأسِ مثقلاً بخوذةٍ من قصديرِ صدى..

حين ترجمتُ هذا النص لـ(فيكتور هوجو) تعاملت معه كجلادٍ بحكم

مقاييس الترجمة الجافة.. ثم تناولته كقارئٍ يعبر صفحات الشاعر ،

فتذوّقتُ جماله وبجّلت الوحدة في سماواتها مثله..

لكن حين ركبتُ متونها فجأةً كفرت بكلام شاعر (الغال).

تحت صقيع السقف كَفَّ الشّادي عن حوره ، وراح يهجر لازمة
النشيد التي رسّخها في أغوار ذاكرته..

ربما كانت خطيئتي وجهلي بمدى حساسيته ورهافته..

لعلني لا مبالية حين اقترفتُ يدي عبثا جعله يتنكر لكل الأعبة.

صمتٌ ، وفراعٌ ، وعزلةٌ في حلّكة أماسي (السروات) الباردة.

تنهكني الوحدة وغسقٌ من العزلة..العالم ينطفئ فجأةً..

وحشة تنخر وجداني أركبُ فيها متونَ التوحّد.. متاهات تدفعني إلى

مناكب وحدة موحشة لا مخرج منها في ليلة فُظة

بليدة متمردة في طولها.

جاهلة ، أميّة في أمر عزوفه في الإفصاح عن الأعبة..

عازمٌ حازمٌ في صدّه لي ولهم.. عزفتُ الانطلاقَ به عصرا يدفعني

جهلي ومرارة ليلةٍ موحشةٍ وكثيرٌ من الفضول..

ماذا دهاه؟!!

ماذا اقترفتُ يدي العابثة وأنا أقلبُ قدراته في الدهاء؟!!

وصلتُ إلى سوق (الجمعية) وسط البلد..

ما زال سوق الجمعية في (أبها) يهدي زواره ملامح من الزمن

الجميل.. يلحقني فتى مكللٌ بلامح الرجال :

- ياخاله..ياخاله.. اشترى منّي مسواك أراك بريال..

- من فين انت يا ابني؟ برد في أبها ماذا تفعل هنا ؟

رفع رأسه معتزًا :

- أنا من اليمن.

- خيارُ الناس يا ابني ما شاء الله عليك خَدَامُ أَرْجَالِ سَيِّدِهِمْ..

- يا خالة واشْ ثدورين ؟

- أدورَ مخرجَ لمَحَلاتِ الجِوالاتِ ما ادري واشْ فيه جِوَالِي فجأة وأنا أتدربُ عليه ما ادري واشْ دِرْتُ فاختفتُ قائمةُ الأسماءِ في (الواتس والفيس والتويتِر) وما عاد يعطي إشعارات..

- ممكن توريني هي حاجة بسيطة والمهندس في المحل ياخذُ عليكِ فلوسُ كثيرٌ..

لم أخشَه ولم أخفُ أن يخطف الجِوالِ مني.

كانت ملامح الطفل تنثر رجولة وأصالة وثقة بعلمه..

انزوينًا إلى ركن بائعة بخور.. تستضيفني بقهوة عربية وتَمُر ، وراح الفتى يضغط زرا فتتوهجُ من الشاشة قائمة بها رموز.. يضغط هنا وهنا بلياقة ومهارة وخفة..

- أبشري يا خالة ظهرت كل التطبيقات وكل الأسماء وعاد صوت الإشعارات..

انبهرتُ بالولد..

- خذ هذي لك كان سيأخذها المهندس وأنت قمت بعمله..

- لا يا خالة ما أخذها لكن اشترى مني مسواكُ بريال..

حين رفض الفتى أخذ العشرين ريالًا قلت له :

كم سعر ربطة المساويك كلها؟

قال: بعشرة.

أخذت الربطة كلها وأعطيته المبلغ لكنه أخذ العشرة ورد
الباقي.. وقال :

هذه كثير ، سعر المساويك عشرة ريال..

تحايلتُ عليه حتى يأخذ المبلغ كله ، ورددت له ربطة المساويك وقلت
له :

أبقها عندك إلى حين أكملُ سوقي ، ووضعت ورقة العشرة ريالاً
الأخرى بينها وقلت له :

إن شاء الله تصير وزير اقتصاد ومضيت..

عادت قائمة الأسماء في جوالي ، وسأقهر الليلة الوحدة.. سأتواصل
مع كل الأحبة ، وسأتواصل مع رفيقي هناك في مزرعته يقطف و عد
السماء ليسقي الزرع..

عدتُ إلى بيتي يملأني دفءٌ ومفخرة بنبوغ جيل يلينُ له الذكاء
الاصطناعي.. وتبددت وحدتي وأمنت من جديد بقصيدة شاعر..
قصيدة (فيكتور هيجو) عن جمال الوحدة..

آمالُ الأزقة الخلفية..

هي قلة من الجيران الذين مكثوا في الحي القديم بالمدينة إثر نزوح جماعي.. نزوح أولئك الذين شغفهم ميلاد أحياء عصرية في مدينة (أبها).

إصرارها على المكوث في البناية القديمة نبع من حلم الطفلة المتجذر في وجدانها..

مُتّمة بالبيت القصبأوي العتيق في المدينة العتيقة هناك ، وتعتق ذاكرة ذلك الحلم الذي يسكنها.. حلم بعمر مدينتها المفقودة.. حلم في أن تقيم يوماً ما في بيت قصبأوي أعلى هضبة مدينة (مزغنة) القديمة..

صباحاً مع أفول هلال شوال خلال إجازة العيد تُطل من الشرفة الغربية للعمارة لتشهد انسحاب الحياة..

نوافذ تكتسي ستائر مخملية..

نوافذ الجيران المترفين تستعد للنوم..

تستعير ليلاً حثيثاً لنهارها.. تطل من الواجهة الغربية للعمارة على الشارع العام حيث تتوقف آخر أفخم مركبة إلى جوار المركبات

الفخمة الأخرى التي رُصّت في فوضى على حافة الرصيف معلنة
استعدادا جماعيا لنوم المترفين دون حلم..

عند الشروق يجرون أعقاب السمرات والسهر وإلى جوارهم يخلد
الشارع العام لسُلطان النوم أيضا يصنعون ليلا لنهار العيد..

تغادر الجهة الغربية للبيت نحو الوجهة الشرقية حيث يولد نهارها
عند إطلالة أول شعاع للشمس..

سيدة تَوَسَّطها العمر تعتقد أنها بتقاعدها المبكر أدّت رسالتها وحققت
الحياة الكريمة والستر..

تطل من خلال الستارة.. توارب نافذة الحجرة الشرقية التي تطل على
الزقاق الخفي..

تُصغي إلى الحياة.. تستفيق قبل الشروق.. تُنصت إلى الحياة تنتشي
من الحجرات المتواضعة للبنىات القديمة..

ملاحم إنسانية تخطو نحو كل زاوية في الرصيف..

العامل الآسيوي يُحدث طفله عبر الجوال :

ستتجح وأشتري لك شنطة جديدة ولباس رياضة.. ستصبح شابا قويا
وتعمل ، حينها أعود إلى الديار وأرتاح..

هناك السباك المصري :

يا ستّ راجعْ لك بالمهر والشبكة نتفوّزْ و نكونْ أسرتنا ونعيش في
سعادة..

وذاك الدهان اليمني تحت نافذتها :

سأرسل لك مبلغا بسيطا ادفعيه عربونا لقطعة الأرض التي سأزرعها
عند عودتي عند نهاية الحرب..

هناك في حوش البيت المقابل العاملة الإفريقية تحدث والدها :

سأرسل مبلغا لك للعملية وستشفى وتطيب وسأعود لبرك..

أحلام وأمان تعرج كصلوات نورانية محاذاة نافذة حجرتها الشرقية
نحو السماوات..

أحلام مشروعة بسيطة فُدسية تصنع هيئة الأزقة الخلفية للحي..
الحي القديم يزف في موكب مهيب حلم العامل.. حلم المغترب من
أجل الرزق الحلال.. أحلام وأمان تعبر من خلال أول شعاع عند
الشروق إليها.. أحلام العمالة الوافدة تُوقظ المنية التي حنّطت روح
السيدة المكافحة حين اعتقدت أنها بلغت هدفها بتقاعد وأمن مالي
متواضع فمات الحلم وفقدت الهدف..

تتساءل من أين يستمد هؤلاء العمال البسطاء المغتربون كل هذه
السعادة التي تترسخ على ملامحهم ؟ من أين يستمدون حماسهم
وفرحتهم بكل يوم جديد؟

إنها فقدت كل ذلك.. تعتقد أنها بلغت كل شيء ، فهي تحيا دون
هدف!!

مع شروق صباحات الأزقة الخلفية من البنايات المتهاكّة حيث تقطن
العمالة الوافدة من تلك البنايات المُنهكة في حُضن الأزقة القديمة في
حي (شمسان) في مدينة (أبها) تتوالد آلاف الأحلام.. ترتقي ظلالها
إلى السيدة التي فقدت الطموح عند توسط العمر حين تقاعدت
مبكرا.. عند شرفات جباه العمالة الوافدة اللجينية بنثرات العرق
اقتبست السيدة المترفة بالراحة مغزى كينونتها ، وفقّعت ماهية هذه

السعادة من قلب المشقة والجهد والعزيمة..سعادة تُصنَع بأمانهم..
بأحلامهم.. بهدف نبيل يكدحون من أجل بلوغه..فهمتُ وقطفت من
الأزقة الخلفية حلما جديدا هدفا للبقية من عمرها كي لا تحيا عبثا
على الأرض ، وراحت تواربُ النافذة مرة أخرى لتأذن للربيع أن
يحلّ بتباشيره في قلبها..في عقلها ، لتحيا دوما بأمال جديدة نحو هدف
نبيل تحقّقه طالما حيّت..

آمال وأمانى الأزقة الخلفية..

الأزقة الخلفية تطل السيدة الأطلسية عليها من الجهة الشرقية لبيتها..
تطل على كل المصطلحات المقيتة التي قُذفت بها هذه الأزقة حين
لُقبَت ب(قاع المدينة) ، فلم يكن قاع المدينة دلالة قذف وشتم..كانت
هذه السبّة (قاع المدينة) مهذا تشكّل من هلامية وموائع نسغها من
عرق جباهٍ وزنود العمالة التي تقطنها الآن..تعطّرها من طهرها
المهيب وحلمها الفسيح في الحياة الكريمة..تخطو أقدام العمال على
قاع المدينة ، فترسم عليها دروبا منيرة نحو هدف العامل البسيط في
الأرض الطيبة أمانا وأمانا وكرامة إنسان ، ومن شرفات نافذة بيتها
تجني حلمها جديدا ممتدا..تصوغ لها هدفا نبيلًا كي لا تموت من
الترف..

(بُولْحَاف) لیس زوجی..

(السّي عبد القادر) لیس والدی..

الكثير من ذوي الاختصاص الأدبي صاحوا في احتجاجا..

لماذا تمركزت كتاباتك بين الجزائر والسعودية؟.. عن مكة
المكرمة.. عن المدينة المنورة.. عن عسير سرواتها وتهاائمها..

لم لا توسعين سردك القصصي والروائي إلى محاور أخرى؟

لم تركزين في كتاباتك عن دائرة نفس الشخصيات؟

لماذا بُولْحَاف.. الشاعر.. بَوْمَصْنَف زوجك دوما هو بطل قصصك
مع والدك (السّي عبد القادر)؟

لماذا خيالك لا يخلق شخصيات أخرى..

كنت أردّ بكل بساطة لست روائية.. لست قاصة..

أوثق فقط ما يعبرني ويمارسني في الرقعة التي أحيا فيها ، فمن أين
أتي لكم بكذبة أو خيال لأسميه قصة أو رواية؟

أوثق فقط ، وهذه ديارى هنا وهناك..

أكتب سيرَ العابرين من خلال الأرض إلى الزمن . إلى أن جاء لقائي
في حوار مع صحيفة الجزيرة الثقافية وكان أحد أسئلتهم ثلّم بنفس
المحور.

(كنزة) هل ذلك العمل عبارة عن يوميات مشاهد حفرت في الذاكرة ،
سيرة ذاتية للمرأة ما بين حياة الحرب والحب والسلام؟

(كنزة) هي كل ذلك .

كنزة كتابة واقتباس لتفاصيل التفاصيل اليومية والتاريخية والثقافية
للمجتمع الجزائري والسعودي.

كتبت (بو لحاف) والشيخ الحكيم..

كتبت هذا الرجل رمز الأصالة كما قرأتها في قراءاتي عن أرض
(الأزد)..

كتبت (وَمِي فاطمة) و(وَمِي نالة وهيلة وحليمة) كما التقيتهن في كتب
التاريخ وشغفت بهن..

سيدات عربيات شيمات هنّ عماد البيت والقبيلة والمجتمع..

سيدات كتبتهن حين لقيتهن هنا في المملكة كما حضرن معي في
الكتب ، لم يختلفن عن المرأة العربية التي قرأتها رمزا..

كتبت (السّي عبد القادر) الرجل الجزائري وهو المجاهد والثوري
والشهيد عبر تاريخ المقاومة الشعبية والنضال.

كتبت هذا البطل الذي يتربع في كل بيت جزائري.

كتبت (كنزة) وهي البنت الجزائرية.

كنزة هي جدتي ووالدتي وأختي وصديقتي ومعلمتي وبنتي وأنا..
كنزة هي كل جميلات الجزائر استُنسِختْ من شجاعة وأصالة (جميلة
بو حيرد) و(للا فاطمة نُسُومَر - لبؤة الجبل-).

خلاصة القول :

أكدتُ على العن أن (بولحاف) ليس زوجي ، و(السّي عبد القادر)
ليس والدي..

صدر للكاتبة

ترجمة :

1- (موجز المنجز) ، أحد أعداد مجلة التنشيط السياحي بعسير إلى
اللغة الفرنسية .

2- كتاب : رُجالُ (ذاكرة قرية عربية) من العربية إلى الفرنسية
لمؤلفه الأستاذ / علي مغاوي - 2010م .

3- هكذا غردوا - ترجمة مختارات من الشعر الفرنسي ، إصدار
نادي جازان الأدبي - ط : الدار العربية للعلوم (ناشرون) 2012م

4- الشعر الفرنسي - أنماطه وأشكاله . دراسة ، للأستاذة / عديلة بو
تبيّنة ، النماذج الشعرية من ترجمة / مهدية دحماني . إصدار: نادي
نجران الأدبي الثقافي ط : (أروقة للدراسات والترجمة والنشر -
القاهرة 2015) .

5- نوافذ نائمة . نماذج شعرية من كل مرحلة من مراحل الشعر الفرنسي. إصدار : نادي أبها الأدبي - ط : دار الانتشار العربي 2016م.

6- جسور- إصدار : نادي الأحساء الأدبي 2017م.

- سرديّات :

7 - (كَنْزَه) - سرديّات ، إصدار: نادي أبها الأدبي - ط : دار الانتشار العربي 2021م.

8 - (روايا الجبال - سرديّات) - - ط :